Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

5
قضايا العصر وصراع الحضارات

واشنطن ايرفينغ

الحمراء

أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الاندلس واسبانيا

ترجمة: عبد الكريم ناصيف ـــ د. هاني يحيى نصري

Bibliotheca Alexandrina
0013592

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحمـــراء

AL-HAMBRA

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحمراء / AL - HAMBRA

حقوق النشر محفوظة

الناشر: مركز الإنماء الحضاري ـ حلب

الطبعة الأولى : 1996

التنضيد: دار الشجرة للخدمات الطباعية

دمشق ـ مخيم اليرموك ـ هاتف 6320775

تصميم الغلاف:

جمال الأمطع

CEC le

مركز الانماء الحضاري

CENTRE-ESSOR ET CIVILISATION

للدراسة والترجمة والنشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحمراء

AL - HAMBRA

قصـــة

«أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأسبانيا»

تأليـــف

واشنطن ايرفينغ

« القسم الأول »

ترجمـــة

د. هاني يحيى نصري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واشنطن ايرفينغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداء المترجم

اوقفتني أمي: «وداد بنت محمد المسكي المكي الشريف»وأنا في مراحل الصياغة الأخيرة لهذا الكتاب، برحيلها عنا. لأهدي لروحها الطاهرة التي لحقت بوالدي في جنة الخلد، هذه الكلمات. عسى أن يضعاها معي تحت أقدامهما هناك.

الدكتور

يحيى نصري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

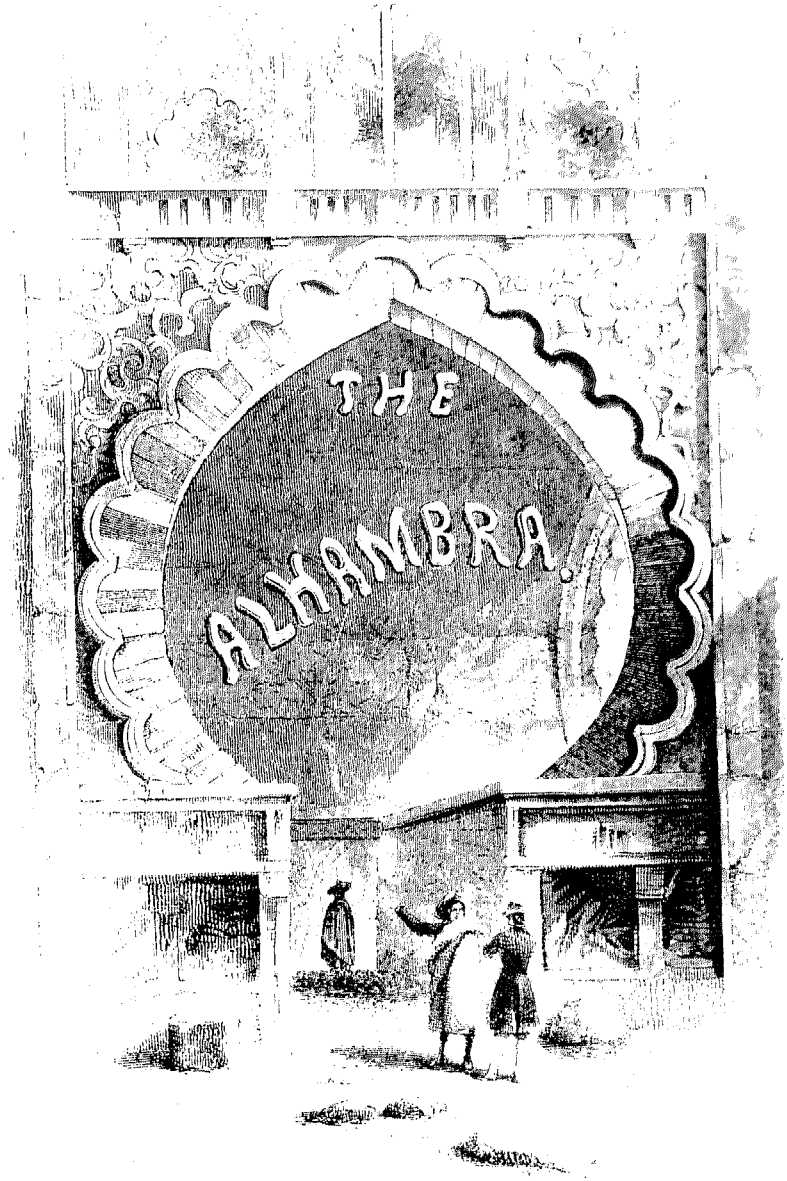

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة العربية

• الخلفية الثقافية والاجتماعية لمؤلف الكتاب:

هناك حقيقة ألسنية هامة في اللغة الإسبانية اليوم، وهي ان هذه اللغة ذات الأصول «الغالية»[1] لازالت تستعمل أل التعريف العربية، في كل جملها. إضافة إلى أن كل الكلمات التي تبدأ بأل والتي تشكل مايزيد عن ثلث المنطوق الاسباني المعاصر، كلمات عربية.

كذلك هناك حقيقة تاريخية أخرى وهي: أن مكتشف أمريكا الأول «كريستوف كولومبس» CHRIISTOPHER COLUMBUS الجنوي الأصل، كان جندياً في الجيش الاسباني الذي فتحت به «إيزابيلا» مع «فرديناند» آخر مواقع الأندلس أي «غرناطة» وأسقطت هذه القلعة العربية الأخيرة، في شبه الجزيرة

---

[1] : Gallic

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الايبيريـــة»عـــام 1492 م. ومـــاأعقب ذلـــك مـــن احتفـــالات سميـــت TE DEUMR في كل أوروبا.

ومما يفسـر وجـود أمثـال «كولومبس»مـن الأوروبيين في جيش «فرديناند» و«ايزابيلا»أن الهويـة الإجتماعيـة في أوروبـا القـرون الوسطى كـانت هويـة دينيـة لاقومية.

لذلك اعتبر النصر الثاني الذي حققه «كولومبس» بعد ذلـك بعـدة سـنوات في اكتشاف العـالم الجديـد، نصـراً أوروبيـاً لا إسـبانياً فقـط . ودوافـع هـذا الكشـف بالاساس تجنب البحر الأبيض المتوسط، الذي كان بحيرة تركية. إذ كان الاتراك يتحركون بدوافع دينية مشابهة في نفس هذه الفترة نحو الغرب ويدقـون أبـواب «النمسا»

ففي الوقت الذي كانت آخر معاقل «المور»[2] أو العـرب في الاندلـس تسـقط وهي « الحمراء»ـ كانت أوروبا الشرقية وحتى حدود فيينا تـترنح تحـت ضربـات الامبراطوريـة العثمانيـة الفتيـة. ممـا يعـني أن الحـروب الصـليبية انتقلـت إلى الغرب، الذي أراد أن يعيدها إلى الشرق من البوابة الهندية.

وازاء واقع وجود القارة الأميركية بينهمـا، شـعر فرديناند وايزابيـلا بضآلـة انتصارهما على الأندلس أمام الغرب ككل، ازاء اكتشاف كولومبس للعالم الجديـد. وهو مجرد جندي ايطالي في جيشهم.

لذلك لفقوا له التهمة الرائجة في ذلـك العصـر تهمـة «الهرطقـة» وأقـالوه مـن منصب «الأدميرالية الاسـبانية» ، وعينـوا بـدلا عنـه حاكمـا إسـبانيا علـى العـالم الجديد، وهو مجرد موظف تابع له هو «أمريكوفيسبوتشي». الذي نسبوا له افتتاح العالم الجديد كجزء مـن LA RECONQUISTA اي إعـادة الفتـح للشـرق، الـذي يجب أن تكون طليعته إسبانيا لاأوروبا المهزومة بالنمسا من الاتراك.

وبينما كان كولومبس«في السجن كان «فيسبوتشي» يضع اسمه علـى الخارطـة البحرية التي يرسمها للعالم الجديد، «أمريكو».

إلا أن الهجرات الاوروبية غير المنظمة الهاربة حرفيا من الاضطهـاد الدينـي الكاثوليكي، في أماكن سيطرتهم بأوروبا، والهاربة مـن اضطهـاد البروتسـتانت، في

---

(2) : عرب المغرب العربي، وهي تحريف لكلمة مراكشي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أماكن تواجدهم فيها أيضا بسبب محاكم التفتيش التي شاعت في كل أوروبا لاباسبانيا فقط إلى العالم الجديد. قلبت المعيار الديني في فهم الأمور، وشكلت من المستعمرات الاميركية خليطاً اجتماعيا، عبر عن نفسه لاول مرة بعد ذلك، باستقلال امريكا الشمالية عن التاج البريطاني، الذي يتسابق مع الاسبان في موضع القدم هناك.

وما إن أطل القرن الثامن عشر إلا وكانت الولايات المتحدة الاميركية دولة عظمى، تضاهي كل الامبراطوريات الاوروبية الهزيلة بالنسبة لها مساحة وعدد سكان.

وفي هذه الفترة كان لابد من وضع دراسات تاريخية حيادية تُعَرفُ هذا الشعب المشكل من عدة شعوب واعراق، بمعنى ظهوره العملاق كقوة كبرى بين شعوب الأرض.

في هذه الفترة ولد واشنطن إيرفنغ–WASHINGTON IRVING - (1783 ـ 1859 م) :

في الوقت الذي دعت فيه الحاجة الاكاديمية إلى وجود باحث ثقافي يربط بين العالم الجديد والعالم القديم.

وايرفنغ» الذي ولد في نيويورك ومات فيها، في «تري تاون» هو أول امريكي أكاديمي يسد هذا الفراغ.

فمنذ كتاباته الأولى في جريدة أخيه الصباحية في نيويورك تحت اسم «جونسون اولد ستايل» بانكليزية راقية كان دقيقا ومعبراً ورائجا.

وقد حاول في البداية اكتشاف الكتابات الالمانية القصصية الشعبية، وبدأ بالقصص العاطفية والاجتماعية. إلا أنه ما لبث أن عين بعد عودته من رحلاته الأولى إلى اسبانيا وزيرا مفوضا فوق العادة في اسبانيا، لما اشتهر به من بحث اكاديمي في الاصول التاريخية لتشكل الشعب الامريكي، وقد اكتسب هذه السمعة بفضل البحوث التالية :

- تاريخ نيويورك 1809 م.
- حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828
- غزو غرناطة 1829 م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- الحمراء 1832 .

- محمد وخلفاؤه 1849 م.

ويعتبر واشنطن « ايرفينغ» اليوم من أعمدة الكتاب الكلاسيكيين الامريكيين لما يتمتع به اسلوبه من انكليزية راقية، مبنية حتى في المجال القصصي على وقائع وحقائق تاريخية، عالجها باسلوب حيادي علمي دقيق.

والحمراء:

هذا الكتاب القصصي الأدبي الذي نحن بصدده هو نتاج كل هذا الجهد الاكاديمي التاريخي الضخم، ويحوي في خلفيته القصصية الادبية أصول أسباب تشكل شعوب العالم الحديث.

تلك الأصول التي نظر إليها «إيرفينغ» بمنظار لما يتأثر بعد في القرن التاسع عشر بأية أفكار مسبقة عن الشعب العربي، كما هو حال الاميركيين اليوم. بعد أن فعلت فيهم ما فعلته الدعاية الصهيونية المنظمة، وخاصة بعد الثلاثينيات من هذا القرن.

كتب ايرفينغ في نيويورك قبل أن تزدحم بالهجرات اليهودية من اوروبا، بعد الحرب العالمية الاولى. ومات قبل قرن من تتويج اللوبي اليهودي لفاعلية قواه الصهيونية، في أروقة مراكز القراز الاميركية في الولايات المتحدة.

لذلك يمكننا القول: إنه القلم الحيادي الذي يكاد يكون وحيداً بين الاميركيين من أصول غير عربية في أمريكا. وأهميته بالنسبة لنا اليوم ترجع إلى، أنه من أكبر الكتاب في تاريخ الأدب الاميركي. وحياديةِ قلمه، بل تحيزه للحضارة العربية دليل من أسطع الادلة ومن صلب الفكر الاميركي على مصداقية الحضارة العربية ورسوخها بين أمم الارض، حتى في أسباب تشكل القارة الاميركية.

وتحكم هذا الكتاب خلفية تاريخية ضخمة وصافية في فهم الرسول (ص). عبر عنها «ايرفينغ» بعد ذلك بكتابه «محمد وخلفاؤه 1849 « وخلفية تاريخية دقيقة سبقت كتابة «الحمرا» حول أسباب غزو الاسبان لغرناطة بكتابه غزو غرناطة 1829م» ، وكتابه «حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828 م» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن دَخَل هذان الكتابان بالمجال الاكاديمي التاريخي البحت. ودخل كتاب «الحمراء» بالمجال الأدبي. فإن أثرهما على كتاب «الحمراء» واضح في مجال إبراز الواقع التاريخي بالجمالية الادبية القصصية، التي وصلت إلى حدِ أن الذي رسم الصور الملحقة بهذا الكتاب، في طبعته عام 1851م وهولايعرف شيئا عن الحضارة العربية، الا من الوصف القصصي في هذا الكتاب. قد جاءت مطابقة لواقع الزي والشكل الاندلسي بشكل لايصدق.

والنسخة التي بين أيدينا عن هذا الكتاب عبارة عن إعادة تصوير لطبعة عام 1851 م بما فيها من صور ILLUSTRATIONS ورغم انها نشرت عام 1982 من قبل .SLEEPY HOLLOW RISTOR ATTON INC. فقد أصر الناشر على عدم استخدام التقنية الطباعية المتطورة الحديثة حتى يبقى للقارىء عبق قراءة الأمس البعيد باسلوب الأمس القريب الإنكليزي، كما أخبرني بذاته حين أهداني هذه النسخة، في مدينة TARRYTOWN التي يسكنها هذا الناشر السيد «بروكاريو» والتي مات بها «ايرفينغ» وبها ضريحه الفخم.

ومنذ ذلك الوقت، بعد أن قرأت مجموعة القصص الرومنطيقية الرائعة التي تشكل كتاب الحمراء هذا، وأنا أفكر بوضعها باللغة العربية لاعادة بضاعتنا إلينا. تلك البضاعة الراقية التي مرت معتقة بأروع قلم امريكي كلاسيكي، تمكن من نقلها كما يوجب النقل المنهجي من جهة، وكما تتوجب شرائط العمل القصصي من جهة أخرى.

وبين فاصلتي الأدب الراقي، والفكر المنهجي يندلح الجمال الأندلسي الفريد ليفوق كل ما كتب عن جنة الأمس «الأندلس» التي تقاسمتها يد الأيام. فلا أقل من أن تبقى بذاكرة القارىء العربي بقاءها بذاكرة القارىء الاميركي مع «ايرفينغ»

وتبدأ هذه المجموعة القصصية عن أيام «الحمراء» الاندلسية بذكر الزحلة التي قادت المؤلف إلى هناك برفقة الأمير الروسي «دول غوركي» الذي أصبح بعد ذلك وزيراً مفوضا لروسيا القيصرية في «ايران» حيث بدأ يظهر للمؤلف بوضوح اثر الشعر العربي في الأغاني الشعبية الأندلسية.

وبعد وصف السهوب وجبال سييرانيفادا «التي سميت باسمها ولاية من الولايات المتحدة. يصف الكاتب بدقة تاريخية معالم قصر الحمراء» وقلعته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخية في غرناطة» والتي هي كناية عن مصيف عذب الهواء بالمقارنة مع جو المدينة الحار.

مشيرا إلى أهمية الزخارف الخطية العربية، وإلى أنها أبدعت لأول مرة في دمشق. ومن هنا الصلة بين الأندلسيين وسوريا. كذلك تتبع أصل البورسلين الذي يشتهر به الهولنديون وهم جالية كبيرة في نيويورك أيامه، وكيف أنهم أخذوه من تلك الأصول الدمشقية.

ثم يصف مواضع إقامة أبي عبد الله النصرى آخر ملوك الاندلس وكيف أن مدفأة وضعت في غرفته يدمر رمادها «الارابسك» القديم الرائع.

مشيرا إلى أن قصور «الحمراء» في أساس بنيانها المعماري، الذي ياكل عليه الدهر ويشرب، بسبب إهمال الجانب الحضاري الاسلامي في اسبانيا، قد قامت لتشخص التصور الاسلامي لجنة الخلد في الارض.

وسكان الحمراء الذين رآهم وصفهم بأنهم أناس يعيشون كما لو كانوا بإجازة دائمة على حد قوله: «إنّ فن (أنْ لاتفعل شيئاً) لايتقنه أي شعب من الشعوب إتقان الاسبان المعاصرين له» عل النقيض من أجدادهم. ثم يفرد المؤلف فصلا لوصف قاعة السفراء في قصر الحمراء حيث أكمل بناءها «يوسف الاول» وجعلها حاضرة ملكه وامبراطوريته التي هي كناية عن آخر موجة من موجات الامتداد العربي إلى الغرب.

هناك حيث كانت جامعات « قرطبة» و«طليطلة» و «اشبيليا» و «غرناطة» مركز إشعاع حضاري للوجوه الباهتة الاوروبية حسب تعبير المؤلف.

ويعدد القرون الثمانية من الاشعاع الحضاري على العالم من الاندلس، من رجال فتحوا وحكموا وازدهروا، ثم بادوا بسبب التعصب الديني.

والافرنسيون الذين نهبوا «مكتبة العدل» في الحمراء بعد فتحها لم يكونوا يعرفون شيئا عن أهمية هذا المركز الحضاري لكل أوروبا.

لذلك يعيدنا إلى تاريخ إنشاء الحمراء على يد: «محمد بن الأحمر» من «ارغونا» سليل عائلة بني نصر التي امتد سلطانها على كل الاندلس. تلك العائلة التي بدأت حروب الطوائف بين أبناء عمومتها، مما أذن بسقوط الاندلس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يفرد فصلا عن يوسف بن الحجاج الذي أكمل بناء الحمراء وقتل فيها اغتيالا.

وبعد أن يضع الكاتبُ القارئَ بهذا الجو التاريخي ينتقل به تدريجيا، نحو التفسيرات الشائعة للظروف الغامضة التي صنعت كل هذا الأمر الذي أقام الناس وأقعدهم. والتي تنسل في أساطير سكان الحمراء بأيامه، من الرجال الذين وصفهم بإتقان فنّ عمل اللاشيء.

لينقلنا بعد حوالي مائة صفحة إلى قصة الغرفة الغامضة في الحمراء. ثم يخرج بنا إلى «البانوراما» من «برج التجار» بقصة مشوقة أخرى. وبعدها قصة عن الشريد، ثم قصة «ابن سراج» فوصف اللحظات التاريخية «لأبي عبد الله النصرى» آخر ملوك الاندلس، ثم أعياد غرناطة.

وهكذا في كل مَعْلم وزاوية من معالم القصر والمدينة قصة يرددها صدى الأساطير الشعبية، ويعيدها «ايرفينغ» بقصص قصيرة رائعة تخلد الحدث التاريخي وترسخه بإشراقة الخيال الرومانسي.

إن قراءة هذه القصص الصغيرة تحت عنوان الحمراء، هي استعادة لحضارتنا هناك، نقلها الفنان «ايرفينغ» من المنطوق الشعبي، إلىالمنطق الفني، بلوحات متتابعة يمكن رؤيتها حين قراءتها ـ كما حصل مع الفنان الذي رسم لوحات الكتاب بعد ذلك ـ فإذا تأتت لها عين مخرج سينمائي عربي وامكانات يمكنها أن تتحول إلى مجموعة أعمال مسرحية وسينمائية يسهل قبولها والاعجاب بها في أي مكان. وتشكل ردا مسبقا على كل فكر قبلي يريد العدو أن يشيعه عن العرب في الغرب.

قصتي مع الكتاب:

لقد عومل كتاب «واشنطن ايرفينغ» على أنه كتاب قصصي أدبي، ولعل هذا يتأكد مع القسم الثاني الذي قسمتُ فيه هذا الكتاب إلى حد ما أقول: «إلى حد ما» لأنني أعني أن القسم الثاني في صيغته القصصية لا يهدف إلى سرد حكايات تصورها الكاتب، بقدر ما يهدف إلى رسم الواقع الاجتماعي والفكري والحضاري لتاريخ الاندلس القديم،من خلال الحكايات وعلى نفس هذا النمط يتضمن القسم الأول رسماً للواقع الاجتماعي والفكري والحضاري المتردي لاسبانيا القرن التاسع عشر في الأندلس . لامن خلال حكايات وقصص تعتمد على حدث تاريخي سابق،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل من خلال حكايات وقصص حدثت مع المؤلف نفسه، في رحلتـه إلى «غرناطـة» وإقامته بقصر «الحمراء» فيها.

مما يعني أن لقصص الكتاب قصصاً حصلت مع مؤلفه. ويمكن للقارىء من خلال كليهما أن يشكل رأيا حول الحضارة العربيـة هنـاك والـتي كـان يجـب أن تبقى، كما يؤيد المؤلف ذلك.

ولأني رايت أن قصتي مع هذا الكتاب تشكل جزءاً من هذا التتابع التاريخي له من جهة، وخوفا من أي ادعاء وغرور من جهـة أخـرى، و لأننـي لا أريـد أن أتعاطى مهنة الأدب من جهة ثالثة. لابد من إيجـاز هـذه القصـة للقـارىء بشـكل مكثف.

ودون أن أدعي بأن هذا الكتاب لم يصل إلى يد عربية قبلي. كانت فرحـتي به غامرة.

ففي خريف 1986 م دفعتني الأقدار إلى ترك التدريس في جامعة الملـك عبـد العزيز في جدة بسبب مرض صدري أصـاب والـدي واكتشـفنا لاحقـاً في مستشـفى «ديجون» في «باريس» أنه بسبب فيروسات التبريد المركزي التي لايتحملها صـدر الشيوخ. ولأن إجماع الأطباء هناك كان بضرورة نقله إلى جو لايحتاج إلى التكييف، كان حقاً علي أن أبقيه في «أوروبا» وسرعان ما شكلت هذه الإقامة الطويلة والمملة له ولنا كعائلة كرست نفسها للاعتناء به، شكلت ضيقاً نفسياً، زاد عنده بازديـاد تحسن صحته نسبياً.

ولأن جو لبنان كان مثالياً له، لكنه مشتعل بالحرب الأهلية، قررنـا الإقامـة «بدمشق». وقد ساعد الإيثار الرائع الذي تتمتع به زوجتي وحبها المثالي لـه علـى إصرارها على مرافقته. تاركين لي فرصة العمل باي مكان أكاديمي مناسـب، علـى أن تصير «دمشق» مركز تلاقينا.

وبذات الوقت جاءني مـن جامعـة «روزهـل ــ برونكـس» في نيويـورك قبـول للتدريس فيها، كما وافقـت جـامعتي «فوردهـام» الـتي تخرجـت منهـا علـى أن أدرس في فرعها أيضاً في «منهاتن ـ لنكلن سـكوير» فكـانت فرصـة لكسـر عزلـتي الأكاديمية التي استمرت حتى خريف عام 1987 م.

أقول عزلتي الأكاديمية ولا أقول انقطاعي الأكاديمي، لأنني اهتبلت فرصـة إقامتي في باريس، بسبب استئجار منزل من مدير «البيبلوتيك ناسـيونال» صـارت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه المكتبة الضخمة معيناً لي لمزيد من الاطلاع على أعمال ومخطوطات «ابن خلدون» و «ابن الأزرق» ، وكذلك تفرغت لصياغة الكثير من أبحاث «ابن سينا» وخاصة كتاب «النجاة» باللغة الانكليزية.

وبذلك كنت مُعداً لرصيد لا بأس به من الأعمال التي يمكنني أن أحاضر بها في مواد الفلسفة المشرقية القرن وسطية.

وهكذا فعلت في نيويورك حين عهد إلي بتدريس علم الإجتماع والفلسفة القرن وسطية المشرقية.

وبطبيعة الحال كان لابد من التعرف على مدير مطبعة الجامعة لطباعة النصوص غير المتوفرة لطلابي، وللأسف كانت الخلفية الإعلامية و الدعائية ضد العرب فاعلة فيه. فيئست من إمكان تعاونه ولجأت إلى وسيلة الإملاء على الطلبة. إلا أنه مالبث أن عين وكيل جديد للجامعة، وكانت لي صداقة حميمة معه، ومع زميل له أسمه «جوزيف بروكاريو» والده مهاجر إيطالي فقير عمل على صقل مواهب ابنه الاكاديمية إلى الحد الذي مكنه من ترقية مهنته بتجارة الكتب إلى أن أصبح مختصاً بالمكتبات ، وناشراً من الطراز الأول في «نيويورك» فاستقطبت الجامعة هذا الناشر الفذ لتحسين مطبعتها، فأصبح مساعداً لمدير مطبعة الجامعة، وراح يحسن من إمكاناتها المحدودة نسبيا مما ساعدني بعمل «ببليو غرافيا» متكاملة لكل ماترجم إلى اللغة الإنكليزية من الأعمال الأكاديمية العربية قديمة وحديثة. وبذلك صارت لدي قائمة هامة بكل أسماء الكتب الكلاسيكية المترجمة من العربية إلى الإنكليزية.

ومكنني التوسع السريع والمنهجي لاستخدام «الكمبيوتر» في الجامعة والذي كان لصاحبي يد في تطويره أيضاً «روز ـ هيل» .. من نقل أي مرجع أشاء، أو أي مصدر مترجم من مكتبة الكونغرس الضخمة المعروفة ، قبل أن يرتد إلى طرفي.

وهكذا تلافيت عدم وجود نص لموادي بيد طلابي، بزخم هائل من المراجع، التي كل ما عليهم إزاءها هو تصوير النسخ التي أقدمها لهم منها.

ولما كان السيد «بروكاريو» مسهماً أساسياً بإعادة نشر كل أعمال «واشنطن ايرفنغ» بنفس صيغتها التقليدية التي ظهرت فيها في طبعاتها الأولى في القرن التاسع عشر. كان كتاب «الحمراء» بطبيعة الحال بجانب سريري أقرأ منه قبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النوم، في كل يوم قصة جديدة. من ضمن كتب «ايرفنغ» الأخرى التي سبق لي ذكرها.

كذلك لأن السيد «بروكاريو» يسكن في نفس قرية «إيرفنغ» «تري تاون» في «نيويورك» تمكنت في بعض أوقات العطل من زيارة منزل المؤلف وقبره. ونحن نقضي الساعات الطوال حديثاً عن أثر الحضارة العربية غير المنظور في القارة الأميركية. والحاجة الماسة لنقل كتب «ايرفنغ» إلى اللغة العربية. والمساهمة إذا أمكن بتوسيع نشر كتبه خارج الإطار الأكاديمي في أمريكا نفسها، فيما لو تبنت هذا الأمر أي جهة عربية مسؤولة كرد مسبق على ماتصوره الدعاية الصهيونية عن العرب هناك.

لقد كان «السيد بروكاريو» وأمثاله من الأكاديميين الأمريكان وأخص بالذكر المرحوم الدكتور الأب فنست بوتر مساعد عميد جامعة فورد فوردهام والدكتور بايرون شيفر، وسواهم يشعرون بخطر نتائج التطميس الإعلامي للفكر والفلسفة العربية وتشويهها ، على تقدم الفكر الإنساني المعاصر، وتقصير الأكاديمية العربية من جهة أخرى بالرد على هذا التجهيل السياسي القصير النظر. وكل ماكانوا يستطيعونه هو استقطاب من يقدر من الامكانات العربية، التي يجب أن أعترف بأنها كانت أقل من أن أستطيع حتى الإشارة لها في هذا المجال.

وعلى كل حال ؟!

هذه هي أعمال «ايرفينغ» وسواه من سيوف الكلمة العربية في الغرب بيدي منذ عام 1987م، فماذا استطعت أن أفعل بها؟ ! علينا أن نعترف أن الإمكانات الفردية مهما أوتيت تظل حبيسة القدرة المحدودة. فأنا لا آمل أن استطيع حتى الآن 1995م سوى أن أقدم الجزء الأول من كتاب «الحمرا» على أحسن تقدير، وإن ساعدتني الظروف. ولولا الحماسة الشخصية لصديقي الأستاذ عبد الكريم ناصيف لكان حتى هذا شبه محال، فهو وحده حمل ثقل الاتصال بالناشر بحلب وصعوبة توصيل الأفكار.

هذا هو موجز قصتي مع هذا الكتاب والتي آمل أن أكون قد وضعت في ثناياها بعض ملامح هذا العصر الذي نعيش فيه، في موقفه من الحضارة والفكر والفلسفة العربية، على غرار نهج «ايرفنغ» بإضاءة قبسات/الملامح. مع الاعتراف المسبق بكل صنوف التقصير عن بلوغ شأوه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حصتي من الكتاب:

إنني منذ أن أنهيت رسالتي في الماجستير في الجامعة اليسوعية ثم اللبنانية في بيروت عام 1974م حول مفهوم «العصبية» عند ابن خلدون إلى أن نلت شهادة الدكتوراه في نيويورك في جامعة «فوردهام» عام 1974 بعنوان: «بدائل الفكر العصبي» وأنا أحاول أن اضع يدي على الأسباب الاجتماعية الرئيسية لانهيار وتداعي حضارتنا العربية بالصيغ المختلفة التي صيغت فيها في الماضي، ودواعي تراجعها المعاصر.

ولئن وضعني التاريخ المعاصر في صلب الحرب العشائرية الأهلية اللبنانية ــ بسبب ظروف الدراسة ــ فقد فرض علي التاريخ القديم مقارنة هذا الوضع الطائفي المتردي، مع دول الطوائف في الأندلس.

لذلك كان لابد لي من الغوص في الفكر الإجتماعي والفلسفي الأندلسي، لعليّ أدركُ تجربة ذاك الشقاق الذي لازال فعالاً في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، فكانت الدراسات المطولة التي كتبت عن «ابن حزم» «وابن باجة» و«ابن طفيل» و«ابن رشد» ، وحتى عن «ابن ميمون» مروراً بالفكر الصوفي مع «ابن عربي» ومدرسة وحدة الوجود في صيغتها مع «اسبينوزا» أقول: كانت هذه الدراساتُ المطولةُ الأساسَ الذي شكل خلفية بحثي في رسالة الدكتوراة عن «بدائل الفكر العصبي»

وما إن أنهيت هذا العمل الأكاديمي الذي تطويه أروقة مكتبة الكونغرس اليوم، حتى التفت إلى مزيد من النشر حول هذا الموضوع في المجلات العلمية الأكاديمية الأمريكية، حتى كان البحث الذي نشرته في J P Q بعنوان: THE MYSTIC ANDSOCIETY، وله ضمن غيره من البحوث على الأقل فضلٌ في ترقيتي إلى استاذ مشارك حين كنت أدَرِسُ في نيويورك، حتى عام 1993 م.

لكن كل هذا ظل حبيس الأروقة الأكاديمية من جهة، واللغة الإنكليزية من جهة أخرى.

ولم يفك هذه العزلة البحث الذي نشرته باللغة العربية في النادي الأدبي الثقافي في جدة عام 1985 تحت عنوان «الفكر الاجتماعي الأندلسي» ــ المجموعة الثانية ـ ولاقبله ما كنت قد نشرته في لبنان بمشاركة المرحوم الدكتور كمال يوسف الحاج: (المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية مطابع الكريم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديثة، عام 1973) . أو لاحقاً (عصبيبة لاطائفية، دار القلم بيروت 1982) فعدت إلى النشر المكثف في دمشق في مجلة الثقافة الأسبوعية والشهرية، ومجلة المعرفة. وعلى سبيل المثال لا الحصر المقال الذي نشرته بالمعرفة عام 1991 / شباط حول ما يهمنا من البنيوية المعاصرة، ثم أسس الجهل الغربي بالحضارة العربية 1992م آب. والإكراه الحضاري لأمتنا 1994 / ايلول.

وحتى المحاضرات التي ألقيتها في المركز الثقافي العربي بدمشق سواء في المزة أو العدوي أو أبو رمانة، والتي لاقت اهتمام وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة ـ مثل «رسائل الفلسفة المشرقية» التي نشرتها جريدة تشرين 13 / 1992/4 على سبيل المثال لا الحصر أو محاضراتي في المركز الثقافي وطىء المصيطبة في بيروت: «مقالات في الطبيعة الإنسانية ... التعصب والعصبية» كانون 2 /1994). أو كتابي الذي نشرته 1995 بالإنكليزية THE RAHMANIC VERSESأقول: حتى كل هذا لم يفك الطوق الأكاديمي والإطار الجامعي الصعب بين القارىء أو السامع العادي وبيني.

وإزاء هذا وأول ما يخطر أمام النقد الذاتي هو لوم قدرتي على نقل الأفكار الفلسفية والاجتماعية المعقدة بأسلوب سهل وبسيط يمكن لغير المختص أن يفهمه. ومحك تعديل الأسلوب هو طبعاً المحاضرات العامة، التي لم أجد ولا في أي واحدة منها أي اعتراض على الفهم، بل على العكس من ذلك نالت رواجاً وفهماً أوسع مما كنت أتصور.

أما البديل الآخر للنقد فهو النقد السلبي للمجتمع بأنه مثلاً مجتمع لايقرأ، وإن قرأ لايحب أن يتعب نفسه بمنظومات الأفكار الصعبة، والذي يحاول أن يؤكده كل ناشر باللغة العربية من منطلق أن أفضل الكتب التي تكتب باللغة العربية ، لايوزع منها أكثر من ألف إلى ألفي نسخة على أحسن الأحوال. فمحطات الترفيه التلفزيوني بالأقمار الصناعية، وتجارة الفيديو، قد سرقت القارىء العربي إلى غير رجعة؟!

وإزاء شعوري الذاتي كمحاضر أفنى من عمره أكثر من عشرين سنة يحاضر في الجامعات العربية والأمريكية (إحدى عشرة سنة في جامعة الملك عبد العزيز في جدة وثماني سنوات في نيويورك ونيو جرسي) عدا عن محاضراته العامة الكثيرة بكلتا اللغتين. ودعواتي كأستاذ زائر...الخ أقول: إزاء شعوري الذاتي بأن لافرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين متتبع المحاضرات العربي ونظيره الأميركي أو الغربي، ولا كبير فرق بين مقتني الكتاب العربي، ومقتنيه الغربي، فكلاهما متراجع نسبياً، وإن كانت الظروف الاقتصادية العربية تزيد من تراجع مقتني الكتب من القراء العرب. فلا بد من سبب آخر يخص هذه المنطقة من العالم دون سواها بما يخص هذا الطوق بين القارىء وبين الفكر العلمي والفلسفي والاجتماعي.

وقد لفت نظري إلى هذا السبب الآخر معاملة الجمهور ـ السامع ـ العربي في المحاضرات العامة لكل محاضر على أنه أديب.

فبمجرد أن تقف لإلقاء محاضرة، مهما كان عنوانها يدل على أنها علمية اجتماعية أو فلسفية، يظل الجمهور العربي يعاملك على أنك أديب يلقي خطبة ما؟!

حتى أن المتقعرين منهم يريدون أن يحاسبوك على بدائل المصطلحات العلمية التي تستعمل في إمكان إشتقاق عربي لها. وكأنه من المسموح للغرب أن يستعمل مصطلحاتنا، حتى البسيطة منها ـ قهوة سكر جبر كيمياء..الخ، ومحرم أن نستعمل مصطلحاتهم بأي لفظ عربي؟! زد على ذلك أن مراعاة الضمة والكسرة هي أهم ما يشد أذن القلة المتقعرة التي استطاعت أن تفرض قبلا على كل قارىء أو سامع أن كل ما يكتب أو يحاضر به خطأ لغوي لأنه يجب أن يكون أدباً؟!

هكذا بدا لي أن طغيان الأدب على القلم العربي، وعلى المنبر العربي، هو السبب الأساسي في إحكام تلك العزلة بين القارىء العربي وكل فكر أكاديمي علمي وفلسفي أو اجتماعي يطرح عليه.

وإذ يعلمنا علم الاجتماع استحالة المواجهة الفورية والآنية مع كل ـ قبْلية ـ اجتماعية أو فكرية عامة. لابد لنا من أن نقدم الفكر للقارىء العربي بصيغة أدبية. ونحن نعلم أنه وإن كان يعامل كل فكر على أنه أدب، قد مل في الوقت ذاته من كل الصيغ الأدبية الفضفاضة التي أصبحت رتابتها لاتثير أي جمالية جديدة عنده بل تعكرها.

نحن إذاً أمام قارىء متطلب، يريد الفكر بصيغ أدبية راقية، وفي الوقت نفسه يطلب شبه المستحيل من الفكر، أن يصير أدباً؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومثل هذا المطلب شبه المحال. لايمكن أن يقدمه سوى قلة في كل الحضارات الإنسانية، من بينهم:

واشنطن ايرفنغ ، الذي اخترته هنا لأنني لاأدعي اي قدرة أدبية مشابهه له، بل فقط لأنه يستطيع أن يوصل النمط الذي كرست عملي الأكاديمي الفلسفي والاجتماعي في معظم جوانبه له. ألا وهو خط البحث عن إمكان حل معيقات تقدمنا العربي نحو المعاصرة، اجتماعيا وفكرياً وفلسفياً.

واستطاعته وصل هذا الخط عن طريق الأدب، لا أطلب منها الكمال الفكري بقدر ما أطلب لفت النظر، للقارىء العربي المتطلب الذي أعاقه الأدب للأسف ولا زال يعيقه عن كل شمولية فكرية، حقيقية تطالبه بالغوص في عمق الفكر دون أي مغريات جمالية.

وإنني إذ أقدم الجزء الأول من هذا الكتاب باسمي أضع الشص الذي أريد به أن أجلب القارىء إلى البحث الأعمق الذي جعل من الأديب «ايرفنغ» فيلسوفاً عالماً ومستشرقاً ـ بالمعنى الجيد للكلمة ـ في الحضارة العربية. حتى لأكاد أقول: لولا هذه الحضارة لظل «إيرفنغ» مجرد أديب أمريكي راقي العبارة جميل التعبير فقط.

الفكر والفلسفة العربية بقمة رقيهما في المجتمع الأندلسي هو هدفي في تقديم هذا الكتاب، أما قدرة نقل الجمالية الأدبية لنصوصه فمسألة أخرى، سأحاولها بنصي في الجزء الأول من هذا الكتاب. وسيجدها القارىء بإذن الله في الجزء الثاني منه مع قلم الأستاذ عبد الكريم ناصيف الغني عن التعريف.

الدكتور

هاني يحيى نصري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة طبعة

1851 م

كتبت هذه الحكايات والقصص القصيرة كتابة أولية، حين إقامتي «بالحمرا»، ثم أضفت لها فيما بعد ملاحظاتي التي سبق أن دونتها ـ أثناء رحلتي إلى هناك. آخذاً بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية، لأظهر هذا العالم الأصغر ـ الأندلس ـ حياً ومعبراً ـ تماماً ـ كما ساقني حسن الحظ لأن أجد نفسي فيه. ولأن العالم خارجه ليست لديه إلا فكرة ناقصة عنه، حاولت أن ألتقط ـ وأبرز ـ وأعبر عن شخصيتة بنصفيها الشرقي والإسباني، في ذاك الخليط الأسطوري من البطولة والشعر، متتبعاً كل ما تلاشى في آثاره من العظمة والجمال. بهدف تسجيل تقاليد الفروسية التي نبعت منه، والتي كانت تجوب في قاعات ذاك الملك، بأسطورية خارقة جسدها عرق خليط من الناس، والشاهد عليها اليوم هو تلك الأطلال.

وقد ظلت أوراقي وملاحظاتي التي كتبتها حبيسة عندي مدة ثلاث سنوات ـ إلى أربع ولم أقرر تهيئتها للطباعة، إلا وأنا في «لندن» عام 1832 م ، عشية عودتي إلى الولايات المتحدة. لكن ظروف السفر وضرورة الاستعداد له حرمتني من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك المتعة. ولذلك لم أجمعها إلا بطريقة فوضوية عشوائية، كما أن جزءاً منها ظل غير مكتمل.

وفي هذه الطبعة أعدت تنظيم العمل ككل بتوسيع بعض أجزائه والإضافة إلى أخرى. حتى أوراقي الأصلية تضمنت تلك الإضافات لجعلها أكثر كمالاً، وبالتالي لتكون مهيأة للانتقاء والاختيار الأمثل.

واشنطن ايرفينغ

صيف ، 1851 م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرحلة

قاد الفضول وحب الاستطلاع مؤلف هذا الكتاب في ربيع 1829 إلى إسبانيا ـــ وبدأ الأمر ـ برحلة استكشافية من سفيل ـ إشبيليا ـــ إلى غرناطة، برفقة صديق من السفارة الروسية بمدريد. والصدف هي التي جمعتني ـــ مع هذا الصديق ـــ ونحن من طرفي العالم، كما جمعنا الذوق المتشابه، بالاندفاع إلى التطواف معاً في جبال الأندلس الرومنطيقية أما إذا كانت هذه الصفحات ستلاقي عينيه سواء كان الآن يقوم بواجباته الملكية في قصره، أو يتأمل عظمة الطبيعة التي اخترقتها مغامرتنا معاً. فإن لطفه لن يمحوه لا الزمان ولا المسافات بيننا، وكذلك أهميته ـــ في هذا العمل[3] ـ

(3) :كان هذا الصديق المرافق للمؤلف الأمير الروسي «دول غوركي» الذي هو الآن ـ عام 1851م ـ وزير مفوض لروسيا في البلاط الإيراني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي الآن إذا أن أقدم بعض الملاحظات عن هذه الرحلة الإسبانية، وما شاهدته فيها . فالكثير من الناس يعتبرون إسبانيا مجرد مقاطعة جنوبية ــ من أوروبا ـ تشبه إيطاليا بفخامتها. بينما وعلى العكس من ذلك بإستثناء بعض محافظاتها ، تجد أنها بلد تغلب على معظمه الكآبة، التي تبرز بشكل جباله القاسية، وسهوله الممتدة الطويلة الصامتة والتي تشبه افريقيا. وغياب الطيور المغردة يضيف إلى ذاك الصمت تلك الوحدة. كما أنك ترى ـ الصقور ــ والجوارح تحلق في منحدراتها الجبلية، وتجوب سهولها، دون وجود أي طيور صغيرة كصفة مميزة لمعظم مقاطعات إسبانيا، باستثناء عدد قليل من تلك الطيور حول الحدائق العامة التي صنعها الإنسان.

وتمتد حقول القمح على مد النظر في المقاطعات الداخلية، كما تلوح للناظر بينها الأرض العارية دون إمكان رؤية من قام بفلاحتها. أما تحت الروابي فيمكن ملاحظة بعض القرى المزوجة بخرائب كأنها ناتجة عن معارك حربية مما يعطي لتلك القرى منظراً قاسياً، خاصة وإن تلك القرى كانت في الماضي ــ قبل تخريبها ثم إعادة بنائها فوق الخرائب ـ معاقلَ قوية في الحروب الأهلية. أو الغزو المغربي العربي ـ المور ـ . لذلك ظلت عادة التلاحم بين الفلاحين بعضهم مع بعض لتبادل الحماية راسخة في معظم أقسام إسبانيا ومقاطعاتها، للرد على كل حذاء يطأ أرضهم.

وهذا لايعني أن الغابات والأحراج غير موجودة في قسم كبير من إسبانيا حيث في تلك الأماكن ترسخ حضارة أرغد، يعكسها محتد كريم يظهر في صفات هؤلاء الناس. مما جعلني أفهم بشكل أفضل صفة الإباء والقسوة إزاء صفات الهشاشة عند الإسباني، بمجرد أن أعرف البلد الذي يسكنه.

إنَّ في الصفات الظاهرة للأرض الإسبانية شيئاً آخر ايضاً يضغط بشكل غير محدود على مشاعر الإنسان. فعظمة سهول (كا شتلا أوف لامنشا ــ منشأ سهول قشتالة) ـ الممتدة على مد النظر، بكل عريها وجلالها تملك صفات البحر المحيط، خاصة حين تلتقط العين قطيعاً من البقر هنا وهناك يرعاه راع واحد، يقف كالتمثال. بعصاه الطويلة كالرمح المرتفع في الهواء. أو حين ترى قافلة من البغال تتحرك من بعيد وكأنها قافلة جمال في الصحراء. أو تلمح فارساً وحيداً مسلحاً بغدارة وبندقية يطرد حصانه في السهول. مما يجعلك تشعر ان العادات ــ وحتى شكل البلاد والناس ككل به شيء من الشخصية العربية. على أن الاستعمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواسع للسلاح في هذه البلاد يوضح بشكل بين جداً عدم الأمن العام فيها. فللفلاح في الحقل، وللراعي في السهول دائماً خنجر وغدارة وبندقية. ومن النادر أن يذهب الأثرياء إلى السوق بدون مرافقة خادم مسلح. وحتى أقرب رحلة يجري التهيؤ لها بما يشبه الذهاب إلى الحرب.

إن المزاج الخاص الذي أنتجته أخطار الطرق حين الترحال، يشبه إلى حد بعيد ما يحصل في القوافل في الشرق، حيث تلحق بها المرافقة المسلحة في يوم محدد.لذلك يقلل المسافرون الإضافيون عددهم ، و يعتمدون على قوتهم الذاتية. وبهذه الطريقة البدائية تتحرك التجارة في تلك البلاد. من جبال البرنيه ـ البرنس ـ والآوسترا إلى البكازارا ـ البقصار ـ والسيرادي روندا حتى جبل طارق. حيث على المسافر أن يعيش عيشة قاسية ويعتمد في بضاعته وزاده على نفسه مزوداً راحلته بزق مائه المدلى على سرج حصانه، والذي يحوي الماء بقدر مايحوي الخمر أحياناً، بسبب نضابة الماء في تلك الجبال الجرداء والسهول العطشى. أما فراشه فهو من جلد البغال يفرشه تحته لينام في الليل، ومخدته سرج حصانه. والمسافر الإسباني قوي البنية، أسمر القسمات، هادىء في التعبير ما لم تستفزه حركة مفاجئة. وهو صريح في تعامله، لايمر عليك دون أن يحييك بعبارة: «ليحمك ا لله » أو : «ا لله معك أيها الفارس».

وتظل أسلحة هؤلاء الرجال بأيديهم، أو معلقة على سروجهم استعداداً لإشهارها بسرعة مستميتة، لأنهم يحملون معهم كل ثروتهم دوماً. كذلك يعتمدون في حمايتهم على عصبتهم ضد الخارجين على القانون «الباندوليرو» الذين من طبعهم الهجوم فرادى بخيولهم الأندلسية السريعة، معتمدين على تسلحهم التام، ومناورتهم حول القوافل، لانتهاز فرصة مناسبة للهجوم.

وعند الإسباني مستودع ضخم من ا لأغاني ـ الشعبية ـ التي تمجد مغامرات الترحال بأنغام قاسية تغنى بصوت مرتفع. وعند معظمهم أدوات العزف التي يعلقونها على سروج خيلهم. وغالباً ما تكون «الكويلة» أو النغمة المغناة رومانسية عن آيام العرب القديمة، أو أساطير بعض القديسين، أو عن قصص الحب، أو مغامرات قطاع الطرق «الكونترا بانديستا» التي غالباً ما يتشجع بها اللصوص والمهربون الذين يتمتعون بموهبة شعرية، غالبة بصورة عامة على الطبع الإسباني. ويقال إنها من وراثة العرب هناك. وهي تعبر عن شعور الوحدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقسوة الذي تحركه سكنى القفار بالنفس. ويرافق كل هذا طنين أجراس البغال المصاحبة.

إن رؤية قافلة البغال في الممرات الجبلية ذات تأثير بصري آخاذ. حيث تسمع أول ما تسمع صوت الأجراس التي تقطعها الريح ممزوجاً أحياناً بصوت سائسها الذي يلاحق أحدها، أو يغني بملء صوته أغنية تقليدية. ثم ترى بعد ذلك البغال وهي تتحرك ببطء على جوانب المنحدرات إما فوقك أو تحتك حسب مكانك في الجبل. وكلما اقتربوا منك تتبدى معالم زينتهم الخلابة، وسروجهم الملونة. وحين يعبرون بك يظهر وراءهم حامي القافلة الذي يعطيك فوراً الشعور بخطر الطريق وعدم أمنها.

ومملكة غرناطة التي نحن على وشك الدخول إليها، واحدة من أكثر المناطق الجبلية في إسبانيا «فاست سيرا» وهي عبارة عن سلاسل جبلية شامخة مليئة بالرخام والغرانيت. وفي قواعدها القاسية وادٍ خصب تتجاذب الحدائق كتل الصخور فيه، حيث يخرج من جوانبها التين والبرتقال والليمون، والورود والرياحين المتفتحة.

وعبر هذه الممرات الجبلية الموحشة القاسية تبرز أحياناً مناظر قرى أو مدن محصنة، وكأنها أعشاش النسور فوق المنحدرات وتحيط بهذه المدن أو القرى المواقع الحربية العربية ـ القديمة ـ أو البروج العالية المهدمة التي تشرف من القمم العالية. مما يعيد الذهن فوراً إلى الأيام الخوالي للفروسية في الحروب التي كانت دائرة بين المسيحية والإسلام، وخاصة في ذاك الصراع الرومانطيقي حول إعادة فتح غرناطة. ويضطرك السفر في هذه السلاسل الجبلية إلى النزول عن حصانك أحياناً، لتقوده صعوداً أو نزولاً على ما يشبه الدرج المحطم. حيث يتسع الطريق حيناً ليضيق أخرى على هذه المنحدرات الخطرة. المليئة بكل أخطار الطبيعة واللصوص مما يشعر المسافر كأنه طريدة، فهو قد يكون تحت مراقبة أحد اللصوص في هذه اللحظة. أو أنه سيقع تحت حوافر حصان أو ثور أندلسي ـ ثور مصارعة ـ فيما لو ظهر الوادي فجأة أمامه. والتفكير بهذه الحيوانات الخطرة التي يمكنها أن تكون قريبة من متناولك. ومنظر هذه الثيران وهي تخفض رؤوسها على تلك المرتفعات الشاهقة الصخرية، يضيف على المنظر ككل مزيداً من الوحشة، خاصة وأنها لم تر وجه إنسان عدا رعيانها، وحتى هؤلاء لايجرؤون على الاقتراب منها، لقوتها الهائلة المنفلتة في البراري.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل قصدي اللاشعوري من هـذا الوصـف المطـول هـو الحديـث عـن المعـالم العامة للسفر بإسبانيا، غير أن هناك إضافة لكل هذا شيئاً رومانطيقياً حـول هـذه الجزيرة ـ الإيبيرية ـ يعجز الوصف عن تصويره.

ولأن الطريق إلى غرناطة يمر عبر مناطق جبلية، وممـرات ضيقـة لاتصلح إلا لقوافل البغال، فهو أفضل مكـان للصـوص وقطـاع الطـرق. وبوضـع هـذا الأمـر في اعتبارنا رحنا نتقدم ببطء مما استغرق منا عدة أيام لقطعه. كما أننا لم نـأخذ معنـا إلا الضروري من الثياب والغذاء والمـال لمثـل هـذه الرحلـة، مـع بعـض الـدولارات الإضافية لدفعها كخوة» لقطاع الطرق لإرضائهم. حيـث أن المسـافر الفـارغ اليديـن الذي يقع بين ايدي هؤلاء السادة سيء الحظ جداً. حيث يعتبرونه وكأنه يغشـهم ويحتقرهم، فهم أولاً وقبل كل شيء لم يخاطروا ـ ضد القانون كي لايحصلوا علـى أي شيء.

ولأجل هذا جهزنا عدة ركائب لأنفسنا، وأخـرى لمتاعنـا، وأخـرى للدليـل الذي كان أيضاً يحرسنا، وهو في العشرين من عمره، يتمنطق سلاحه الذي وعدنـا أن يدافع به عنا ضد كل معترض. ولكن عصابة قوية كعصابة «أبناء إيسيبما» أقـر لنا بأنها أكثر من قدرته. ورغم إظهاره سلاحه لنا كـي نـراه، كـان يتركـه معلقاً دون ذخيرة خلف سرجه.

أما الذي استأجرنا منه الخيل فقد تعهد بنفقـات إطعامهـا أثنـاء الرحلـة، ورغم هذا التعهد ظل هو والخيل يعيشون على حسابنا ، والمال بجيبـه لاينفـق منه. ولكي نفوز بولائه لنا كان لابد لنـا مـن.تضييفـه بعـض «السيكار» . وهـو في الواقع إنسان ذو قلب طيـب وسـريرة جيـدة، ومـرح. عاملنـاه بإلفـة كاسـبنيار حقيقي، وهو من طرفه لم يتخط حدوده.

تلك كانت تجهيزاتنا الأولية للرحلة . والأهم من كل هذا تمتعنا بروح المرح على أن نأخذ الأشياء كما نجدها، صعبة أو سـهلة. لذلـك كـان زينـا أشبه بـزي قطاع الطرق ،وكنا نختلط بكل الطبقات، ونواجه كل الظروف التي تواجـه مثـل هذا الاختلاط. وهذه هي الطريقة الصحيحة للسفر في إسبانيا. فبمثل هذه الإرادات صارت أسوأ الفنادق كأحسن القصور بالنسـبة لنـا، وشـكلت كـل وجبـة نتناولهـا إنجازاً بحد ذاته. فالنكهة النفيسة للرومانطيقية الإسبانية القديمة هي في الطرقات الصعبة شبه المتوحشة مع الوجه الرحب المضياف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بهذه التجهيزات تحركنا من ضواحي إشبيلية «فيرسفيل ستي» في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم مشرق من أيام «مايو» يصحبنا سيد وسيدة من معارفنا سارا معنا عدة أميال، كما العادة عند الإسبان في إظهار ودهم لمعارفهم وأصحابهم. وهكذا سرنا في طريق «الكالا» ـ القال ـ بجانب نهر «آييرا» الذي يزود إشبيلية «سفيلا» بالماء. ومررنا بالمعامل التي تصنع«عيش ا لله» والمخبز الذي يزود المدينة بالخبز الشهي، ومعظم أبناء المدينة من الحرفيين الذين ينقلون بضائعهم إلى عملهم على قوافل من البغال.

وكذلك مررنا على الخزانات التي تزود اشبيلية بالماء من ـ القال ـ «الكالا» والتي بناها الرومان ثم العرب بدقة هندسية متساوية. مع ملاحظة أن ينابيع ـ القال ـ «الكالا» الحارة كالفرن تضفي على خبز إشبيليا ـ «سفيلا» نكهته الخاصة.

وعند هذه الينابيع توقفنا بعض الوقت في خرائب قصر عربي قديم، يعد مصيفاً للمدينة، حيث أمضينا وقتاً طيباً داخل فنائه الضخم المعمد بالعمد والبقايا المهدمة، والمحاط بجدران عريضة جداً. بينما الرياح تعصف بالهضبة كلها، والتي تحفل بالزهور بألوانها الزاهية تحت أشجار البرتقال والليمون. وهنا سمعنا غناء العندليب على أفنانها.

والجسر الذي يقطع النهر الذي بنهايته الطاحون العربي التابع للقصر محمي ببرج مبني من الأحجار الصفراء، علقت عليه شبكة صيد لتجف، وقارب الصياد في النهر، وعلى ضفته تمر القرويات الحسناوات بأثوابهن المزركشة، يبدو كالصورة، ويشكل موضوع صورة زيتية رائعة لرسام فنان.

ولعل الصفة الأساسية من صفات الريف الإسباني هو منظر الطاحون العربية القديمة، التي تنتصب دائماً على جداول الأنهار الأندلسية، مع مايرافقها من بروج للدفاع، حيث يتمركز المحاربون في أيام الحروب المتكررة، وهي التي تدعو إلى تأمل ماضي هذا الريف، و تلك البلاد التي كانت دوماً عرضة للهجوم من قبل طرفي الحدود، والحاجة إلى الأبراج كملاجىء مؤقتة فيها.

وقد كان توقفنا الثاني في «الفاندول» حيث بقايا قصر عربي آخر مع برجه المصاحب والمطل على سهل «الكامبينا» الخصب الفسيح، والذي يمتد حتى جبل «روندا» البعيد. إن هذه القصور كانت معاقل قوية لحماية السهول من الغزوات والنهب الذي كانت تتعرض له المحاصيل والماشية التي تساق خارج الحدود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين توقفنا في « الغاندول» لم نعرف الوقت بدقة، لأن الساعة العامة هناك تدق فقط مرة واحدة كل يوم فيما بعد الظهر بساعتين لذلك يخضع الوقت عندهم إلى التخمين. وبناء على هذا التخمين قررنا الغداء وطلبنا «الباستا» وبينما هي تحضر زرنا قصر المركيز في المدينة وهو خرائب عدا غرفتين أو ثلاث مسكونة ومفروشة بأثاث فقير، كذلك ظلت بقايا من سطحه «تراسه» الذي كانت تمشي عليه خطوات الفرسان الرشيقة، مع نسائهم الشقراوات، مع حديقة خربة بها حوض سمك وعريشة، وأشجار نخيل تحمل رطباً. وهناك لحق بنا مسؤول القصر وبيده باقة ورد جمعها وقدمها بلطف للسيدة التي ترافقنا.

أما تحت القصر فالطاحونة وأشجار البرتقال على جدول ماء عذب فتفيأنا ظلالها. ورافقنا بالجلوس عمال الطاحونة الذين تركوا عملهم للانضمام لنا، معبرين عن طبيعة الأندلسيين المستعدين للراحة دوماً. وقد كانوا بانتظار الحلاق الذي يزورهم أسبوعياً لهندمة لحاهم.وبعد قليل وصل الحلاق، وهو صبي في السابعة عشرة من عمره، يركب حماراً عليه سرج قال: إنه اشتراه بسعر معقول، حوالي دولار واحد يسدده في عيد القديس «جون» ـ يحيى ـ حيث ـ يجتمع لديه إلى ذلك الوقت مالٌ كافٍ لتسديد أقساطه.

وبينما كانت الساعة العامة في القصر تدق دقتيها، كنا على وشك إنهاء غدائنا. فودعنا أصحابنا الذين رافقونا من إشبيلية وتركنا عمال الطاحون مع حلاقهم ليهندم لهم لحاهم. وركبنا باتجاه «كمبينا» لنعبر السهول الواسعة المعتادة في اسبانيا، والتي ليس فيها لاشجر، ولا بيوت. حيث يتعرض المسافر فيها إلى المطر الغزير الذي لامأوى ولا مفر منه، إلا بالعباءة الإسبانية التي تغطي الحصان وراكبه معاً تقريباً، والتي يزداد ثقلها كلما ابتلت وكانت كلما تخف حدة غيمة ماطرة تعقبها أخرى، نراها وهي تتقدم نحونا ببطء. يعقبها لحسن الحظ فواصل مشمسة دافئة دفء شمس الأندلس، التي تسمح لعباءاتنا أن تجف قبل أن تعود لتبتل ثانية ووصلنا إلى «الأرحال» بعد غروب الشمس بقليل، وهي قرية صغيرة بسفح الهضبة، مسلحة ومستعدة ضد اللصوص، ومنظر الغرباء أمثالنا يبدو لهم كشيء غير عادي، وخاصة حين دخولهم للقرية وبمرافقة مسلحيْنْ مغطيين بعباءاتهما. تفحص مضيفي جواز سفري بدقة، وهو يملي على أحدهما معناه على ضوء فانوس خافت. حيث أن جوازي مكتوب بلغة أجنبية يصعب عليهم فهمها. لكن مرافقنا الذي ساعدهم على الفهم ضخم من أهميتنا في أعين هؤلاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الإسبنيارد» بينما قمنا نحن بتوزيع «السيكار» عليهم ففزنا بقلوبهم جميعاً، وبسرعة صار كل الناس يرحبون بنا. امتلأت الغرفة التي كنا بها بالكراسي، وازدحمت بالراغبين بالتعرف على هؤلاء الغرباء الزوار المرموقين. وهكذا تناول قائد المجموعة الحارسة العشاء معنا. وهو رجل مليء بالحياة والمرح الأندلسي، وأخبرنا أنه كان في غزو لشمال أفريقيا، ثم أعاد على مسامعنا مغامراته بالحب والحرب بقصائد مفعمة، أضاف إليها مزيداً من التعبير بحركات يديه وعينيه البراقتين. اضاف بأن لديه قائمة باسماء كل اللصوص في البلاد، وعرض علينا رجاله للمرافقة قائلاً : « إن واحداً منهم كافٍ لحمايتكم أيها السنيور. فاللصوص يعرفونني. ويعرفون رجالي. وحيث يظهر واحد منا يكفي لإشاعة الرعب في قلوبهم عبر كل «السييرا» فشكرناه على ماقدم، وأكدنا له بنفس أسلوبه بأننا وبحماية مرافقينا لن نخاف كل قطاع الطرق في الأندلس.

وبينما كنا نتبادل الأنخاب على ذلك سمعنا صوت «الغيتار» وطرقات الصنجات ـ التي توضع بين الأصابع ـ «كاستانيتس» مع صوت يغني أغنية شعبية. فقد فاجأنا مضيفي بأنه جمع في ساحة الفندق الذي انتقلنا إليه جميع هواة الغناء والموسيقى والراقصين في الحي المجاور، مما أعطانا شعوراً بالاحتفال الإسباني «الفستفال» الحقيقي. فوضعت كرسيٍّ بين مضيفي ومضيفتي تحت القوس الذي يحمل سقف الساحة وإزاء قائد الفرقة الموسيقية. بينما تناقلت الأيدي الغيتار، حتى وصل إلى إسكافي أظهر براعة بالضرب عليه، وهو يلتف بعباءة ضخمة، وراح يغني أغنية حب جميلة، جمال ملامح قسماته، موجهاً كلماتها إلى امرأة كانت حتماً على علاقة حب معه. وعقب على ذلك بأن قام يرقص رقصاً أندلسياً يسر المشاهد. إلا أن جمال إبنة مضيفي «ببتا» التي تزينت زينة خاصة للمناسبة فاق جمال كل النساء الحاضرات، وخاصة حين ملأت شعرها بالزهور. ورغم كل هذا الخليط من القرويين و المسلحين والجنود، فإن أحداً لم يتجاوز حدوده في المرح البريء.

فقدمنا للجميع الشراب على حسابنا، وكان الانسجام يستأهل صورة زيتية فنية. فالراقصون والجنود بنصف لباسهم الرسمي، والفلاحون بعباءاتهم من جهة، وذاك العجوز الذي يكتب على الضوء الخافت لمصباح كبير مصمم على غرار مصباح «دونكي شوت» ـ دون في يوتي ـ الذي لا يلتفت من جهة أخرى يشكل صورة فنية جميلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي صباح اليوم التالي من أيام «مايو» المشرقة غادرنا «ارهال» ـ الأرحـال ـ في الساعة السابعة صباحاً. والناس على بيوتهم يودعوننا، باتجاه السهوب الخصبة التي تبدأ في موسم الحصاد في الصيف تكتسي اللون البني فتعطي الشعور بـالخواء والوحدة. وكمسيرة الأمس لم يكن في طريقنا لاناس ولا بيوت فـالقرى في معـاقل الهضاب كأنها تركت تلك السهوب الخصبة لغارات العرب حتى الآن.

وعند الظهيرة وتحت ظل مجموعة أشجار نادرة في منتصف الطريق، حضرنا طعامنا محاطين ببقعة رائعة. من الأزهار البرية والعشب ذي الشذى. والعصافير تغني حولنا. وكانت زقاقنا مليئة بالخمر وجعبنا بالطعام لأننا كنا نعرف أننا لن نصادف أي مكان أوفندق نتزود منه بعد الأرحال فعـلاً مرافقنا خـرج الـدواب[4] بكل أصناف الزاد الذي يكفي مدة طويلة.

وفرش المرافق أمامنا الزاد على بساط الحشيش الأخضر وطيبه بلحم الخـنزير الجيد الـذي أحضرنـاه مـن اشـبيلية. فتذكـرت بهـذه المناسـبة أشـعاراً قالهـا «دونكيشوت» ويعتبرها معظم الأسـبان أنهـا قيلـت في مناسبة تاريخيـة حقيقيـة، وحين تلوتها قال مرافقي: لقد حصل كل هذا في زمن بعيد ايها السنيور.

فأجبته: بزمن بعيد حقاً؟! حتى لأجـرؤ علـى القـول: إنـه أكـثر مـن ألـف سنة، وأنا أنظر له نظرة شيطانية

ولأني لم أضف أكثر من ذلك دخل السرور إلى مرافقي، هذا البسـيط القلـب الذي لايسره شيء أكثر من مقارنتـه «بسانكشـو» ـ مرافـق دونكـي شـوت ـ فهـو يعجب بولائه لعمله، لذلك سمى نفسه بهذا الاسم طوال الرحلة.

وبعد الغداء فرشنا تحت الأشجار ورحنا في قيلولـة «سيسـتا» علـى الطريقـة الإسبانية، إلى أن أنذرنا الغيم وريـح الجنـوب الشـرقي بـالهبوب فتابعنـا السـير حوالي الساعة الخامسة إلى أن وصلنا إلى «اوسونا» وهي قرية قائمة بجانب هضبة، بل قصر خرب وكنيسة، ويعيش فيها حوالي خمسة عشر ألف نسمة. أمـا الخـان فيها فمنظره متواضع غير جذاب به نزلاء تجمعـوا حـول الموقـد ـ الشـومينة ـ في

---

[4] : والخرج هو اختراع عربي مصنوع من الجلد أو من القماش المتين وذو فتحات ضيقة، ويتدلى على جانبي الدابة تحت السرج أو فوقه أو خلفه

ـ المؤلف ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زاويته بسبب البرد الليلي. و المضيفة فيه امرأة مسنة جافة تبدو مثل «المومياء» وبينما نحن ندخله حدقنا الجميع على الطريقة الإسبانية في البحلقة، التي ينظر بها الإسبان إلى الغرباء. والتي كان يجب أن نقابلها بإبتسامة وتحية فرحة من جانبنا، لإضفاء جو التفاخر الإسباني. ثم جلسنا معهم وأشعلنا سيكاراً لكل منهم، وبذلك تحقق لنا النصر الكامل. فأنا لم أعرف أي إسباني يرفض سيكاراً مهما كانت درجته أو مكانته، لأن هذه الهدية لايستطيعون مقاومة إغرائها، شرط أنك حين تقدم شيئاً ـ للإسباني ـ أن تهتم بأن لاتظهر عليه أي شيء من التعالي، فهو لايقبل أي خدمة تقدم له على حساب كرامته.

وبمجرد أن غادرنا «اوسونا» في اليوم التالي دخلنا في «السييرا»، وهي مجموعة من السلاسل الجبلية، بها طرقات جميلة كاللوحات الفنية. لكن الدخول بطرقاتها الفرعية يضفي شعوراً بالوحدة، حيث علائم الجرائم هنا وهناك. كدليل على أننا نتقدم في مناطق قطاع الطرق. وتشتهر هذه البلاد الموحشة بسهولها وجبالها، بالخارجين على القانون «باندیتو». ومنذ القديم كان هنا يربض اللص «عمر بن حسان» في أيام المسلمين، في القرن التاسع ويفرض الجزية حتى على الخليفة في غرناطة. كذلك كانت هذه المنطقة مهد الثورات والانتفاضات أيام «فردناند وإيزابيلا» والتي كان يقودها « علي العطار» اللسيد ــ السيد ــ القديم للأقصى «لوكاس»، والذي كان والد زوجة أبي عبد الله[5] «بابدول». آخر ملوك الأندلس من العرب الذي طرده «فردناند وإيزابيلا». ولذلك سميت هذه المنطقة بحديقة علي العطار. وهنا أيضاً كان «جوز ماريا» الإسباني المشهور بقيادة العصابات يتخذ مكانه.

وخلال النهار مررنا عبر « فونتا لابيدرا» ــ نبع البيدر ــ بجانب بحيرة مالحة صغيرة لها نفس الإسم، وتعكس على صفحاتها الجبال البعيدة كالمرآة. حيث بدت معالم «أنتي كويرا» على أطراف سلسلة «السيرا» التي تخترق الأندلس، تلك المدينة القديمة ذات الشهرة الحربية الواسعة. وقد بدت كبقعة خصبة مؤطرة بإطار من حجار الجبال. ثم دخلناها بعد أن عبرنا نهراً صغيراً رقيقا

---

(5) : التي قالت لزوجها قولتها الشهيرة: «ابك على ملكك بكاء النساء، لأنك لم تحفظه حفظ الرجال». كما ينسب هذا القول لأم ابي عبد الله، وقد وضعه الأدب العربي في بيت مشهور هو: ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال. -المترجم-

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كجدول بين حدائق وأزهار يغـرد فيهـا العندليـب أغنياتـه المسـائية. ومـع حلـول الظلام كنا على أبواب المدينة الإسبانية الصبغة والطابع في كل ما فيها. فكان كبار السن يعتمرون «المونتر» وهو غطاء رأس أصله للعيد وشـائع الاسـتعمال في إسـبانيا. بينما يعتمر الشباب غطاء رأس أصفر مستديراً على شكل قبعة، يلفها شريط فيبدو شكلها كالفنجان الموضوع بالصحن. أما النساء فلا زلن يعتمـرن «الباسكويتا» ربمـا لأن الأزياء الباريسية لم تصلهـن بعـد وعبرنـا شـوارع المدينـة لنصـل إلى سـاحة «القديس فرنارندنا ومنها إلى فندق رث غير معتنى بـه، لأن المدينـة ليسـت علـى طريق المسافرين لذلك لاعناية بفنادقها. لكن غرف هذا الفندق نظيفة وطعامه وفير. ولذلك ذهب «سانكشو» إلى المطبخ كما كان يفعل خادم «دونـك وفي الصبـاح البـاكر من الرابع من «مايو»زرت خرائب القصر العربي هناك والذي كان قد بنى على أنقاض قلعة رومانية.وعلى أنقاض برج من أبراجه المتهدمة جلست لأتمتـع بمنظـر الأرض المنبسطة أمامي والمزارع المليئة بالجمال والقصص الرومانطيقية الماضية. فأنا الآن في قلب البلاد الشهيرة بالتنافس الفروسي بين العـرب والمسـيحيين. وتنتمـي المدينة التاريخية التي ذكرهـا المؤرخـون في موسـوعاتهم والـتي مـن أبوابهـا خـرج وتصارع الفرسان الذين كانوا من أرقى، وأرفع الرتب من الإسبان، مع نظيرهم مـن العرب خلال الحروب التي رافقت فتح غرناطة. والتي انتهت بمذابح مروعة علـى جبال «مالاغا» ـ ملقا ـ تاركة كل الأندلس في حداد. وكل هذا الآن مغطى بالحقول والأزاهير، حتى صخرة العشاق المتمطية في السهل، والتي القت ابنة السيد العربي وعشيقها نفسيهما عليها من اليأس، لازالت باقية.

وحين بدأ جرس الكنيسة التي تبدو تحتى من السفح يدق تراتيل الصبـاح في الهواء العذب بدأت أنزل نحو المدينة باتجاه السوق الذي بدأت تدب به الحركـة والزحام، حيث تعرض البضائع وتباع الورود، فكل امرأة أو فتاة أندلسية لاتعتبر فستانها كاملاً دون وردة تزينه.

ولما عدنا إلى الفندق وجدنـا صاحبنـا «سانكشـو» مـع صـاحب الـدار وإبنيـه المسلحين، يتحدث عن قصص «إشبيليا» الرائعـة ويقابلهـا بمـا حصـل في المـاضي الأندلسي عندهما. وهنا أخبره مالك الفندق ـ أنه كان في المدينـة بحـرة في إحـدى ساحاتها العامة إسمهـا «بحـرة الثـور» ماؤهـا يخـرج مـن فـم راس ثـور محفـور بالصخر وتحته كتب:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

EN FRENT DEL TORO
SE HALLEN TESORO

أي : أمام الثور يوجد كنز. مما دفع الكثيرين إلى حفر البحرة، بجهد ضائع ولم يجدوا مالاً. إلى أن فسر أحد الأذكياء الشعار بطريقة مختلفة، بمعنى أن الكنز في رأس الثور، فجاء ليلاً وكسر رأس الثور. فماذا تظنه وجد؟!

قال «سانكشو»: الكثير من الذهب والماس!!

فأجابه المضيف صاحب الفندق ضاحكاً مع أبنائه: لاشيء لقد دمر التمثال والبحرة فقط. وظلوا يقهقهون لأن القصة مشت على «سانكشو» ومشت عليه خدع الألفاظ فيها.

ـ فحملها «سانكشو» في نفسه دون أن يظهر ذلك ـ ثم تركنا «انتيكوبرا» في الساعة الثامنة صباحاً، وركبنا بمحاذاة النهر عبر حدائق الأوركيك التي تملأ الجو بالعطر، و تغريد العندليب، ومررنا بصخرة العشاق، ثم قطعنا خلال الصباح «أرشيدونا» ـ قرية أرشدونا ـ المحاطة هضبتها بثلاثة أبراج جبلية، وبها خرائب قصر عربي ويقطع القرية طريق معبد بالحجارة يسمونه: «الطريق الملكي للحقول» وكان علينا أن نجتاز هذه القرية نزولاً من الجهة الأخرى من الهضبة التي تربض عليها.

ومع الظهيرة كنا في حقول الزيتون في موقع مطل مددنا على أعشابه سماطنا، تاركين لسانكشو مهمة إعداد الطعام، وخيولنا لترعى بالقرب منه. وهو صامت خلافاً لعادته هذا الصباح منذ أن سخر منه صاحب الدار. ويهيء «الفورجاز» ـ الفالوذج ـ بفخر من استطاع أن يضيف لزوادته من كل أصناف طعام الفندق المختلفة من لحم خنزير ودجاج وخضراوات إضافة إلى عدة أرغفة وكمية من الفواكه والتين والزبيب والبندق، وخمر من «مالغا» ـ ملقة ـ وهو يسترجع بين الفينة والأخرى قصة بحرة الثور ويضحك قائلاً: لقد ظنوا أن سانكشو خدع في «الأنتكويرا» لكن «سانكشو» يعرف اين يجد الكنز الحقيقي!!

وبينما نحن كذلك برز لنا شحاذ يمشي وحيداً، وكأنه عائد من الحج، ومعه خبز رمادي عفن قديم، وبيده عصاه يتكيء عليها رغم أن الزمن لم يحنه بعد، إذ كان طويلاً منتصباً أكل الزمن منه بشكل متناسب. ويعتمر طاقية أندلسية مستديرة، وعليه رداء من جلد الخروف، ويلبس بنطالاً يصل إلى ركبتيه فقط من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجلد، تحته شراب وصندل. وبذلك بدا لباسه القديم محتشماً. وحيانا بطريقة الطبقة الدنيا للإسبنيارد. لكن مزاجنا كان يمكنه تقبل مثل هذا الزائر، الذي يبدو كطالب صدقة مزيف. فأعطيناه رغيفاً سميكاً من الخبز، وقليلاً من خمر «ملقة» فتقبلها شاكراً بصورة مقتضبة، ثم رفع الخمر إلى الضوء دهشاً قبل تذوقها، وجرعها دفعة واحدة، وقال: لقد مضى مدة طويلة قبل أن أتذوق مثل هذه الخمرة، إنها منعشة لقلب رجل عجوز مثلي. ثم نظر إلى الرغيف وقال: ليتبارك مثل هذا الخبز.

ثم وضعه في محفظة. إلا أننا طلبنا أن يأكل منه الآن!!

فأجاب: لا أيها السنيور، لقد كان علي إما أن أشرب الخمر أو أتركه أما الخبز فباستطاعتي أخذه إلى المنزل لأتقاسمه مع أسرتي. لذلك وبسبب هذا التعبير، وما تنم عليه نظراته التي لاحظها «سانكشو» قدم له وليمة على شرط أن يجلس ويأكلها.

فانتبذ مكاناً قصياً عنا، وبدأ يأكل ببطء وكرامة وأناة. دلالة على أن هذا الرجل العجوز يمتلك زمام نفسه، مما جعلني أعتقد أنه كان في رغدٍ سابق، إضافة إلى أن لغته رغم بساطتها تبرز بها صيغ شعرية عابرة في صيغة جملها. إلى حد أني أعتبره فارساً حط به الدهر. والواقع أنني كنت مخطئاً، فكل هذا لم يكن إلا تعبيراً عن ذات كل اسبنيارد. إذ يمكنك أن تجد الرقة الشاعرية في أوضع الطبقات لهذا لشعب الحاد الذكاء. وهو حين أخبرنا أن مهنته كانت منذ خمسين سنة رعي أغنام، لكنه الآن عاطل عن العمل ـ تداركت خطأ حكمي السابق عليه ـ ثم أردف قائلاً: لم يكن أي شيء يؤذيني أو يزعجني لما كنت يافعاً، لذلك كنت دائماً مرحاً وأشعر بالرضا. ولكنني وقد بلغت التاسعة والسبعين بدأ قلبي يخذلني فصرت شحاذاً.

وعرفنا أنه لم يكن يشحذ دائماً، بل يشحذ حين تجبره الحاجة على مثل هذه المهانة، كما أعطانا انطباعاً يدل على الصراع في نفسه بين الجوع والكرامة. خاصة عندما تعرض الأشياء عليه لأول مرة. ولأنه كان عائداً من «مالطا» بدون مال، ولم يذق طعاماً منذ زمن، وهو يعبر أوسع سهول اسبانيا الخاوية تقريباً. من السكان، وإزاء مشارفته على الموت ـ شحذ ـ . وأخبرنا أنه حين شارف على الموت، طرق باب خان سائلاً أصحابه أن يعطوه من مال الله. ولما كان الجواب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسباني رفض كل شحاذة، قال: لكرامة قلبي - ونفسي - علي اقتربت من نهر عميق وكدت أرمي نفسي فيه. فما قيمة العيش لرجل عجوز لاقيمة له مثلي؟! ولكنني عندما كدت أندفع في التيار، فكرت بمريم العذراء، فعدت أدراجي؟! واستمررت بالسير حتى رأيت معالم قرية بعيدة قليلا عن الطريق، ودخلت من الساحة إلى بوابة الدخول التي كانت مغلقة. فأغلق الشباك في وجهي. مما اضطرني إلى العودة إلى الساحة وقد غلبني الجوع وانهار قلبي، حتى ظننت أن ساعتي قد أزفت. فاستلقيت أمام الباب مسلماً نفسي للعذراء ومغطياً رأسي استعداداً للموت. وبعد قليل ظهر سيد المكان عائداً إلى بيته. فرآني مستلقياً أمام البوابة، فرفع الغطاء عن وجهي، وأشفق على شيبتي، وأدخلني إلى منزله، وأعطاني طعاماً. وهكذا ترون أيها السادة أن على الإنسان أن يشعر دوماً بمريم العذراء؟!

لقد كان هذا الرجل العجوز في طريقه إلى مسقط رأسه «أرشيدونا» - أرشدونا - التي كانت تبدو على المنحدر من ذاك الجبل القاسي. فاشار لنا إلى خرائب قصرها، وقال: ذاك القصر كان مسكوناً بملك عربي أيام الحروب في غرناطة، وغزته الملكة «ايزابيلا» بجيش كبير. فنظر إليها الملك العربي من علياته وسخر منها. فظهرت العذراء للملكة أثناء ذلك، وقادتها وجيشها بطريق سري لم يكن معروفاً من قبل عبر الجبل وعندما رأى ملك العرب جيشها امامه اندهش وقفز بحصانه من قمته، فوقع إلى الأرض قطعاً. وعلائم حوافر حصانه يمكنك رؤيتها على هامش الصخر إلى هذا اليوم. وكما ترى أيها السنيور فإن ذاك الخيط الذي يبدو كالشريط على جانب الجبل، هو الطريق الذي عبره جيش الملكة والمعجزة هي أنه رغم إمكان رؤيته من بعيد، فهو يختفي عندما تقترب منه؟!

وهذا الطريق المثالي الذي أشار إليه، كان بلا شك حزاما من حول الجبل، لايعود منظوراً حين الإقتراب من الجبل بسبب نتوءات الصخر. لكنه يتضح حين الاقتراب أكثر.

وبعد أن لعبت الخمر بقلب هذا العجوز، راح يخبرنا عن قصة الكنز المدفون الذي تركه الملك العربي في ذاك القصر. وكيف أنه لقرب منزله من القصر سمع صهره في إحدى الليالي - وقع معاول الخوري ونائبه اللذين عرف فيما بعد أنهما رأيا الكنز في الحلم ثلاثة أيام. لكن أحداً لم يعرف ماذا وجدا. إلا أن المعروف هو أنهما أصبحا أغنياء فجأة، دون البوح بسرهما لأحد. وهكذا أكد لنا هذا الشحاذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه كان جاراً قريباً من ثروة ضخمة في يوم من الأيام. لكنهـا قـدر لهـا أن لاتكـون تحت سقفه.

و نلاحظ أن قصص الكنز المخفي من أيام العرب شائعة في كل اسبانيا، وفي كل مكان فيها، ومتداولة بين الطبقات الفقيرة جداً. ومثلهم في ذلك مثـل الرجـل العطش الذي يحلم بالماء والبحيرات، والجائع بالطعام، كذلك يحلم هؤلاء الفقـراء بـالذهب المخفـي، ولا شـيء أكـثر سعة في تخيـل مثـل هـذه الأمـور مـن خيـال الشحاذين.

تابعنا مسيرنا، بعد ظهر هذا اليوم نحو جبل منحدر عـاس وكثـير الشـعاب يسمى طريق الملك، والذي يعتبر أحـد أهـم الممرات نحـوً غرناطـة، وهـو نفـس الطريق الذي عبره جيش «فردناند» باتجاهها. ثـم أخـذ الطريـق بالاتسـاع مـع تقدمنا وحلول المساء فرأينا «لوكاسا» ـ الأقصى ـ تلك المدينة الحدودية التي ردت «فردناند» عن أسوارها، ولأن اسمها العربي هـو : «الأقصـى» فهـي تعـني البعـد الآخير، وتعـني «القـدس» أو الحـامي. فهـي حقـل غرناطـة وإحـدى حامياتهـا المتقدمة. وقد كانت في تلك الأيام معقلاً للمقاتل الناري «علـي العطـار» هـو أبـو زوجة «ببدول» ـ عبد الله ـ حيث جمع جنوده هناك وظل يقاتل بهم ـ بعد سقوط غرناطة ـ حتى آسر هذا السيد ـ السيد ـ وقتل صـبراً. فـالأقصى لم تقبـل بتسـليم مفـاتيح غرناطـة لأنهـا هـي البوابـة الحقيقيـة لهـا، وموقـع القيـادة نحـو الممـر باتجاهها . ومنظرها كلوحة مرسومة على جبل قاس يزيده بهاءً قلعتها الداخليـة التي تبرز من وسط المدينة. أما النهر الذي يتمسّح بأقدامها، ويعصف بين الصخور والمنحنيات نحو بساتينها فعليه جسر بناه العرب. أما كـل مـافوق المدينـة فعـار من الأشجار وموحش وقاس. وعلى النقيض منه بساتينها الوارفة فوق كـل تصـور، والنهر هو الذي يفصل بين هذا الاختلاف المتعارض بين مافوق الجسر وماتحته من حدائق وجنات، ويسير بانحدارات مائيـة ذات خريـر آخـاذ. ويمثـل الحـدود الأخيرة لهذه الأرض المتنوعة، والأكثر رومانطيقية في اسبانيـا الأندلـس ـ الجبـل الملكي لغرناطة والمعمم بالثلوج، «السيرا نيفادا» ـ السير النافذ ـ.

وحين ترجلنا علـى مدخـل المدينـة، وأخـذ «سانكشـو» الخيـول ليضعهـا في الخان، بدأنا بالتجول في هذا الحصن على صوت دقـات جـرس الكنيسـة، الـذي يؤذن بوداع يوم العمل، ومعه بدأ النـاس برفـع قبعـاتهم تهيـؤاً للصـلاة المسـائية. كعادة تلاحظ في كل اسبانيا ناتجة من ذاك الخضوع العنيف للكنيسة، وخاصة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأماكن النائية منها. ومع ذلك كان مشهداً مسائياً جميل الغسق، يشير إلى بداية ظهور القمر اللامع بين ذرا النخيل. ولم ينبهنا من هذه المتعة الهادئة سوى صوت صاحبنا المتقطع الأنفاس الذي اندفع يبحث عنا وهو يقول: سيدي إن سانكشو لايساوي شيئا دون دونكه شوت. فقد أقلقه عدم عودتنا إلى الخان ـ الفندق ـ بمثل هذه المدينة التي فيها الكثير من قطاع الطرق والدخلاء، فالأقصى مشهورة بوحشتها هذه، وهو لم يعرف ماذا يمكن أن يكون قد حصل لنا. لذلك انطلق يبحث عنا سائلاً كل انسان يصادفه، حتى تتبعنا عبر الجسر فلمحنا عبر الظلال!!

وعدنا معاً إلى النزل الذي دلنا عليه والذي لازال يحمل روح الأمس باسمه «كورونا» أي التاج. وكانت مضيفتنا أندلسية يافعة جميلة. أرملة تتشح بمئزرٍ أسود يزيد شكل جسدها بضاضةً واستدارة، تخطر بقوام رشيق ونظرات تشع ناراً من عينين سوداوين. ودلّها وغنجها يدلان على أنها اعتادت نظرات الإعجاب. ولها أخ بعمرها تقريباً يبدوان كأندلسيين حميميين. وهو طويل حسن البنية حادٍ الملامح غامق البشرة والعينين، وبذقنه طابع جميل، يلبس جاكيتاً أخضر ورديا مزيّنا بأزرار فضية يلائم شكله، ويضع بكل جيبة من جيوبه محرمة بيضاء متدلية، مغلقاً كل أزراره حتى الرقبة، حيث يطوقها بمحرمة أرجوانية معقودة بخاتم، كوردة تخرج من قميصه الأنيق. ويتزنر بزنار ملائم من القماش حول وسطه من الجلد الفاخر الذي صنع بدقة وأناقة متناهية. وتحت بنطاله حذاء أنيق، يظهر قدمين متناسقين.

بينما كنا نقف معه على الباب، وصل فارس وراح معه بحوار حميم بصوت منخفض، وكان هذا الفارس بزي مشابه له، وبأناقة متقاربة. وهو رجل في الثلاثين من عمره تقريباً، مربوع القامة مكتنز البنية، ذو ملامح رومانية بها جمال، وتبدو عليه علائم الجرأة والصراحة. ويعطي مع حصانه الأسود القوي المزركش بطرر جميلة متراقصة، مع بندقيته القصيرة ذات الفوهة الواسعة والمعلقة خلف سرجه، سمة هؤلاء اللصوص الذين رأيتهم في جبال «رونـدا». وقد كان واضحاً تفاهمه مع شقيق مضيفتنا، فهو إن لم أخطىء محظي لدى الأرملة . ان الفندق ككل يوحي بأنه مأوى لقطاع الطرق هؤلاء، فالبنادق ذات الفوهات العريضة تنتصب في الزاوية قرب الغيتار. الذي استعمله الفارس ليقضي الأمسية وهو يغني أغان جبلية رومانطيقية. وبينما كنا على العشاء جاء رجلان من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«أستوريا» معريان من ثيابهما وكل أموالهما لتعرضهما لقطاع الطرق الذين سرقوا خيولهما وكل تجارتهما، يطلبان الطعام والمأوى وأثار الضرب عليهما نتيجة محاولتهم المقاومة. ونتيجة للكرم المتأصل بمرافقي الأمير الروسي، أمر لهما بعشاء وغرفة، وأعطاهما بعض المال كي يعودا إلى ديارهما.

ومما زاد الجو ثقلاً على هذا العشاء، دخول رجل في الستين من عمره ذي ملامح تدل على القوة، وبدأ بالتحرش بمضيفتنا، بخيلاء هشة وكل واحد من الحضور ينظر إليه نظرة مختلفة. وكان أندلسي الزي، ذا شاربين كبيرين ويتأبط سيفاً رفيعاً.

وهمس «سانكشو» لنا أن هذا هو: «دون فنتورا رود ريغوس» بطل الأقصى والشهير بقوة ذراعيه. الذي فاجأ أيام الغزو الفرنسي ستة جنود نيام بسكينة، فقتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر، وغنم خيولهم، مما سر الملك، فأعطاه معاشاً قدره دولار يومياً مع لقب «دون Don» الشرف.

وقد كان هذا يفترض فيه أن يكون مؤدباً وحسن السلوك والتصرف . لكنه كان وقحاً يحمل سيفه الرفيع كما يحمل الطفل لعبته، ويسميه قديسته «تريزا» ويقول: عندما أمتشقه تهتز الأرض؟!

وقد اختلط هؤلاء الناس المختلفون حسب الطبع الإسباني، فجلست إلى وقت متأخر أسمع من كل هؤلاء. وهكذا حصلنا على أغنيات قطاع الطرق، وقصص السرقات، وحروب العصابات وذكرى أساطير العرب. أما المسحة الشعرية لقصص «الأقصى» التي يؤكد الناس أن بها كنوزاً في مغارة أغلقها ملك العرب ولم تعرف إلى الآن، فقد أعطتها سيدة جميلة بجو من الغموض زادته أصوات خرير الجداول.

وهكذا عدت إلى سريري مفعماً بتصورات قصصية مما سمعته ورأيته في هذه المدينة المقاتلة. وعلى هذا الشعور من الرهبة نمتُ لأصحو فجأة على صوت زمجرة مروعة، تخيف حتى البطل «لامنشا» نفسه، ورغم ماأعرفه من الفنادق الإسبانية المليئة بالضجة دائماً ـ كان ذلك يفوق الحدود. إذ بدا للوهلة الأولى كما لو أن العرب قد عادوا إلى المدينة، أو أن ماأخبروني به قد أطلق من نطاق الخيال إلى الواقع. فنهضت نصف عار ذعراً، لأتبين أن ليس في الأمر أكثر من أن رجلاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجوزاً قد فاز بليلة دخلته على عروسه، فتمنيت له السعادة عائداً إلى هدوء سريري لأنام بعمق حتى الصباح.

وحين صحوت في الصباح لأرتدي ثيابي، لمحت من الشباك جماعة من الشبان الأندلسيين بأزيائهم المهندمة الجميلة، ويتمشون بعباءات بنية على النسق الإسباني التي لايمكن صنع مثيل لها، وعلى رأسهم القبعات الفريدة «ماجيوهات»، وملامحهم تشبه أولئك الذين صادفتهم في جبال روندا. لأن الملامح والصفات في هذا الجزء من اسبانيا متشابهة. وهم يجوبون الطرقات كمن لديه كل الوقت والمال الكافي ـ للبطالة ـ ، وتحتهم خيولهم وبيدهم أسلحتهم، من بنادق طويلة وأخرى ذات فوهات عريضة، وغيتاراتهم التي يغني بعضهم عليها أنغام «البوليرو» الشهيرة. فالفراغ الطويل الذي يتمتع به كل الاسبان مرسخ عندهم كصفة من صفات الفروسية، فعلى الفارس دائماً أن لايظهر في عجلة من أمره. أما الأندلسيون فيزيدون على ذلك صفة المرح، وعدم ادعاء أي مثالية. كذلك تبرز عند قطاع الطرق عندهم من الأماكن الجبلية حتى حدود الأندلس الصفات ـــ المورفولوجية ـ الغالبة.

لكن على العكس من منظر هؤلاء كان هناك اثنان من «فالنسيا» ذوا سيقان طويلة يسوسان حماراً، محملاً ببضائعهما. ويعلقان بنادق طويلة على ظهريهما، استعداداً للدفاع، ويلبسان جاكيتات مستديرة «جاليكوس» من الحرير القطني تصل إلى الركبتين وكأنها فستان امرأة. وحول وسط كل منهما شلة حمراء، وينقلون الصنادل، وعلى رأس كليهما منديل ملون يشبه العمامة يترك قمة الرأس مكشوفة. أي بصورة موجزة يبدو مظهرهم بمجمله مظهراًعربياً.

ثم غادرنا «الأقصى» بمرافقة فارس مسلح يعمل رئيساً لقسم الجمارك، ومهمته مرافقة وحراسة الطرق من الخارجين على القانون، ومعه حارس يسير على قدميه، حيّانا وتركنا نغادر. وخلال ركوبنا معه علمت منه كيف يتحول المهربون إلى فرسان في إسبانيا. قال: جاؤوا إلى الأندلس من أماكن مختلفة، وخاصة من «لامنشا» ـ المنشأ ـ ليهربوا البضائع عبر خط «البلازا» أو عبر جبل طارق. وينزلون أحياناً من السفن التي ترسو في ليلة محددة على الشاطيء. وهم دوماً يسيرون مع بعضهم البعض، ويسافرون ليلاً. أما في النهار فينامون بهدوء في الأحراج، أو في شعاب الجبال، أو في البيوت المهجورة، أو عند الفلاحين الذين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يرحبون بهم بسبب ما يقدمون لأسرهم من مهربات، فمعظم أدوات التجميل والزينة لدى نساء القرى الجبلية والسهول، هي هدايا من هؤلاء المهربين.

وفي الوقت الذي يفترض أن تلاقيهم السس يصلون إلى أماكن معينة على الشاطيء، ويرصدون قدوم السفن من الشعاب الصخرية والمرتفعات . فإذا قرروا النزول إلى البحر بعد إشارة ثلاثية من السفينة، ينزلونه فرادى ، ويقومون بعملهم بسرعة حين تقترب السفينة لإنزال المهربات على شكل حزم صغيرة يسهل وضعها على الخيل. ثم يتحركون بسرعة بعد التحميل إلى الجبال. ليسافروا عبر أصعب الطرق الموحشة، حيث تصبح مطاردتهم مستحيلة تقريباً. لذلك لايلاحقهم رجال الجمارك، بل يكمنون لهم في طرق أخرى. فإذا عرفوا بوجودهم تكمن لهم قوة من اثني عشر فارساً وثمانية مدافع في مكان توقع نزولهم من الجبل نحو السهل. وبعد أن تمهلهم المدفعية حتى يبتعدوا عن الجبل، تمطرهم بقذائفها. فإذا حاولوا العودة تظهر لهم كمائن الفرسان. وهنا يحصل قتال حقيقي قد يضطر فيه المهرب إلى النزول عن حصانه وإطلاق أحماله لإعاقة الهجوم. والنجاة بنفسه. ومن ينجو يفقد متاعه، ومن يؤسر يؤسر مع كل شيء. وهُنا صاح «سانكشو» الذي كان يسمع هذا بأذن نقدية: بعد ذلك يجعلونهم لصوصاً شرعيين.

فضحكت على هذه الشرعية في قطع الطريق التي أشار اليها «سانكشو» لكن رئيس الجمارك أكد لي أن هذا مايحصل فعلاً. فعند تضييق الخناق عليهم يصبح من حقهم قطع الطريق. فيضعون الجزية على المسافرين. كتعويض يمكنهم من تجهيز أنفسهم ثانية. وعلى هذا النحو يتحول المهرب إلى قاطع طريق.

وعلى هذا ودعنا مرافقنا وتابعَهُ حوالي ظهر ذاك اليوم، وبعد قليل خرجنا من الجبال، ودخلنا وادي غرناطة الشهير. حيث قضينا الظهيرة بالاستراحة تحت شجرة الزيتون محاطين بالزهور وقد كنا ببقعة معروفة تقليدياً. فبالقرب منا بستان «سوتو دي روما» الذي أشاده كما تقول الاسطورة الكونت «جوليان» ليسلي ابنته «فلورندا». ثم صار منتجعاً ريفياً لملك غرناطة العربي. وهو الآن إقطاع للدوق «أوف ولنغتون[6]». وبمسحة أسى من وصل إلى غاية رحلته الاستكشافية هذه قال مرافقنا: مع فرسان مثلكم يمكن السفر إلى أقاصي المعمورة. مبدياً بعد ذلك بعض البهجة لإشرافه السعيد على هذه الرحلة. وكان النهار صحواً تلطف حر هاجرة

---

(6) : القائد الإنكليزي الذي هزم «نابليون» في معركة «واترلو» الشهيرة - المترجم -

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشمس فيه الرياح القادمة من الجبال، التي تحرك أمامنا وادي «فيغا» المجيد. حيث من البعد تبدو غرناطة الرومانطيقية محاطة بأبراج قصر الحمراء، وفوقها إكليل من الثلج على سفوح جبال «سيرا نيفادا» ـ السير النافذ ـ يشع كالفضة.

وعلى الأغطية التي فرشناها أخذنا قيلولة يهلل لنا فيها أزيز النحل على الورود، وهمهمة الحمام فوق أشجار الزيتون، إلى أن مرت الهاجرة وتابعنا رحلتنا. لنصادف بعد قليل من السير رجلاً سميناً كالضفدع يركب بغلاً، دخل «سانكشو» في حديث معه. وحين تأكد أننا غرباء دلنا على مكان استراحة، مدعياً أنه مكاري[7] وأنه يعرف المدينة كراحة يده، وقال: «أي مدينة سوف ترى أيها السنيور؟! بطرقاتها وساحاتها وقصورها، والبناء؟! أي نساء بحق «سانتا ماريا». فقلت له ـ مقاطعاً: «ولكن الاستراحة التي تتحدث عنها، هل أنت واثق من جودتها.

جيدة!! بحق «سانتا ماريا» هي الأفضل في غرناطة بصالوناتها وحدائقها الفخمة، وغرفها الرائعة وأسرتها المفروشة... ستكون أيها السنيور مثل الملك «شيكو» في الحمرا.

وهُنا سأله «سانكشو»: كيف ستطعم جيادي؟! فأجاب: مثل جياد الملك «شيكو» تنال الحليب والشوكولاة على إفطارها؟!

ولأننا لانرغب فيما نتجه اليه بأكثر من شبه هذا التقدير الجيد ركبنا بهدوء، والدليل يدلنا ويلتفت إلينا بإعجاب إزاء كل مشهد نقترب منه.

وبمثل هذا النوع من المرافقة، عبرنا حقول التين الهندي والزنجبيل. في بريئة الحدائق التي تحف بالوادي من كل جانب. ومع الغروب كنا على أبواب المدينة. ودليلنا الصغير ـ القصير ـ هذا يقودنا عبر الأزقة، حتى وصل إلى ساحة الفندق، وكأنه وصل إلى داره، فحيا صاحب المكان باسمه المسيحي. وادعى أنه تركنا بعنايته كفرسان نستحق كل تقدير، مؤكداً ومذكراً بأن العادة هي مصاحبة السادة أمثالنا بالزفة والأبواق من مضيف ومضيفة الفندق، مع ترجمان خاص للمرافقة على نفقتهما. وهنا قال صاحب الفندق: « إنكم لاتعرفون ماالذي حصلتم عليه»؟! فهذا المرافق الذي معكم كنز يجب أن تحافظوا عليه، فهو عجيبة من عجائب

---

(7) : الرجل الذي يؤجر الحمير للركب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدنيا الثمانية، فالسنيور «جيل بلاس» يستحق أن يخدمه كل شيء في هذا المكـان كأمير؟!

لكننا من جهتنا قررنا أن لايبقى هذا المكاري على حسـابنا دائمـاً، واكتفينـا بدعوته فقط على العشاء، حتى لانبدو كناكري جميل. وتأكد حدسنا عند الصبـاح عندما اكتشفنا أن هذا المكاري الحقير الذي هو قطعاً صديق صـاحب الفنـدق، قـد دلنا على أكثر فنادق غرناطة فوضى وسوء ترتيب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصر الحمرا

إن قصر الحمرا هو كعبة زوار إسبانيا، من الذين ينشدون رؤية الجانب التاريخي والشعري الرومانطيقي لتلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليدصحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عربية وإسبانية حول الحب والحرب والفروسية، مرتبطة بهذا الركن التاريخي. فهو سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل، بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية. والقصر الملكي يشكل جزءاً أساسياً من حصن الحمرا في غرناطة. وهذا الحصن تمتد جدرانه بأبراجها المرتفعة على امتداد الرابية ـ المطلة على البلد ـ بشكل مواز ومناظر لسيرا نيفادا وثلوج جبالها. ويطل على المدينة من جهة أخرى ملاحقاً الهضبة بانحناءاتها غير المنتظمة، فيبدو من ظاهر عمارته الخارجية أقل بكثير من انطباع العظمة والجمال بداخله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان هذا الحصن في أيام العرب يستوعب جيشاً لا يقل عن أربعين ألف مقاتل. يقومون أيضاً باخضاع رعايا المدينة في حال ثورتهم. وظل قصر الحمرا قاعدة للملك النصارى بعد أن خضعت المدينة لهم، فسكنه العديد من الملوك القشتاليين، مثل الإمبراطور «شارل الخامس» بما بناه من قصر خاص له داخل هذا القصر، ولم يتمكن من إنهائه بسبب الهزات الأرضية المتعاقبة. ولعل آخر سكان قصر الحمرا من الملوك، كان «فيليب الخامس» وزوجته الجميلة «إليزابيث أوف بارما» اللذين سكناه في مطلع القرن الثامن عشر. حيث أُعِدت تأسيسات ضخمة لاستقبالهما، فأعيد إصلاح القصر وحدائقه، وبنيت ملحقات جديدة، وأثثت بأثاث صنعه فنانون من إيطاليا، رغم أن إقامتهما كانت عابرة وقصيرة. ثم خلا القصر بعد رحيلهما وأقفر ثانية. لكنه ظل تحت الصيانة العسكرية. وبعد ذلك استلمه المحافظ من التابع، وامتدت الأوقاف الملحقة به إلى ضواحي المدينة، فظل مستقلا عن الحاكم العسكري لغرناطة رغم بقاء حامية عسكرية لابأس بها فيه. وهكذا صار للمحافظ شقة فيه، توجد في مواجهة القصر العربي، وكان المحافظ لا ينزل إلى المدينة بدون مرافقة عسكرية، خاصة وأن الحصن بحد ذاته كناية عن مدينة

صغيرة، فيها عدة شوارع وبيوت داخل أسواره، إضافة إلى كنيسة صغيرة وبيت عبادة لرهبان «الفرنسيسكان».

وهكذا هجر القصر داخل الحمرا فكان هجره ضربة قاتله لها، حيث بدأ الخراب يدب في قاعاته الجميلة إلى حد تداعي بعضها، كما ذوت حدائقه، وتوقفت نوافير بحراته عن التراقص. وظلت القلعة ككل مفتقرة إلى السكان إلى حد ما. مما مكن المهربين واللصوص من دخولها والاختباء بها. بعد أن يقوموا بعملياتهم في النهب من غرناطة وجوارها. ومع الانتقال التدريجي للحامية والحكومة منها، لم يبق لها كساكن رسمي ذي حق بسكناها إلا القليل من أصحاب هذا الحق، وبذلك زال قسم كبير من البيوت الملحقة بالقلعة في داخلها، والذي بقي منها آهل. وأهملت الكنيسة و«الفرنسيسكان» معاً. ثم تحولت الحمرا خلال الأحداث الأخيرة مع الاحتلال الفرنسي إلى معسكر لجنودهم. فسكن القصر قادة فرنسيون، حافظوا على هذا الأثر العربي من الزوال ألنهائي الذي بدا شبه محتم، حسب طريقتهم المعهودة في الأماكن التي يحتلونها. فأصلحوا السقوف وحموا الصالونات وأثاثها من عوامل الجو، وزرعوا الحدائق، وأعادوا تجهيز برج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراقبة، وهكذا عادت نوافير القصر للتراقص، فعلى إسبانيا أن تشكر غزاتها، لأنهم حفظوا لها أجمل وأهم أثر من آثارها.

لكنهم حين رحلوا نسفوا بعض الأبراج في الحصن الخارجي، دون أن يعني هذا أنهم لم يتركوا الحصن قابلاً لأن يحتفظ به ككل. بل يعني أن الحصن لم يعد مركزاً عسكرياً. لذلك صارت الحامية التي فيه قليلة، هدفها الأساسي حراسة بعض الأبراج التي تستخدمها الحكومة كسجن. وهجر المحافظ هذه الرابية وقصرها وسكن في قلب المدينة لإنجاز مهامه الرسمية بطريقة أكثر عملية. وأنا لن أنهي هذه الملاحظات السريعة دون أن أشير وأشهد للقائد المعاصر لهذا الحصن النبيل «دون فرانسيسكو دو سرنا» الذي يوظف كل الإمكانات القليلة تحت يده لترميم القصر بصورة دائمة. فيقظته وحذره وحدهما يحميان هذا المكان من التداعي، تماماً كما فعل أسلافه بإخلاص مشابه. لذلك يمكننا القول: إن الحمرا اليوم مكان لا زال يحتفظ بجماله الأصلي. والقابل لأن يحفظ لأجيال قادمة ستعجب به، وبأرض ستجذب فضول المثقفين من كل مكان.

وصبيحة يوم وصولنا كان أول موضوع لنا طبعاً هو زيارة هذا المكان الواقف ضد الزمن، الذي نال دقة وصف زواره من الرحالة، الذين لن أسهب في الحديث عنهم، بل سأرسم معالم انطباعاتهم التي تركوها عن هذا المكان.

فتركنا مكان إقامتنا، وعبرنا ساحة «فيفا رامبلا» التي كانت في يوم من الأيام مسرحاً للفرسان العرب بزينتهم الخلابة، وصارت الآن سوقاً مزدحمة، وتابعنا نحو «زاكاتين» ـ الزقاقين ـ الذي كان أيام العرب الطريق الرئيسي لسوق المدينة المسقوف ـ بازار ـ والذي فيه إلى الآن متاجر صغيرة، وزواريب ضيقة تسمه بالطابع الشرقي. ثم عبرنا قصراً مفتوحاً خلف قصر الحاكم العسكري، ونزلنا بشارع واسع ذكرنا اسمه «كالي» ـــ قال لي ـــ بفرسان غرناطة. و«التالي» أو «القوالون» أسرة من المغنين العرب نسب المكان لها. وهو طريق يقود إلى «بيوتادي لاس غرانادا» وهي بوابة ضخمة مبنية على الطريقة الهندسية الاغريقية، بناها «شارل الخامس» لتشكل المدخل الرئيسي للحمرا.

ويحرس هذه البوابة عدد من الجنود كبار السن يجلسون محملقين بالأحجار، بينما يقف غلام طويل يتشح عباءة قديمة تحتها ثياب أقدم، ويثرثر مع أحد الخفراء. وبمجرد دخولنا البوابة عرض علينا خدماته السياحية ولازمنا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما من جهتي فقد كنت أمقت المتسكعين الرسميين، لذلك لم يعجبني عرضه بعضه على بعض. فقلت له: إنك تعرف القصر على ما أفترض؟!

أجاب لاأحد يعرفه أكثر مني، أنا ياسيدي ابن الحمرا!! والواقع أن لدى الإسبنيارد طريقة مقنعة لإظهار مالديهم. فكلمة: ابن الحمرا!! استولت علي مباشرة، ورفعته في عيني. إنه حتماً يعرف كل خرائب الحصن. لذلك حين سألته المزيد من الأسئلة وجدت أن إجاباته مقبولة. فأسرته قد عاشت في الحصن جيلاً بعد جيل منذ أيام فتحه. ولأن اسمه «ماتيوكزيمنس» قلت له: ربما أنت من سلالة «غراديناك كزيمنس» الشهير؟! فأجاب: الله أعلم أيها السنيور، قد يكون هذا؟! لكننا أقدم أسرة من المسيحيين في الحمرا بدون أي أصل عربي أو يهودي. وأعرف أننا ننتهي إلى أسرة عريقة الأساس لاأعرف من هي. لكن أبي يعرف ذلك، فعنده درع معلق في كوخه الصغير في الحصن.

إن كل اسبنيارد يدعي كرم المحتد مهما كان وضيعاً أو فقيراً. وهذا الأشعث الأغبر قد التقطني بعبارة: ابن الحمرا. فقبلت خدماته بسرور. وهكذا اتجهنا عبر زقاق ضيق مليء بالزهور، ومرصوف بالحجارة، يتسع في أماكن بها «فستقيات» تخرج منها النوافير المائية. وعلى يسارنا برج الحمرا، ونحن نمر تحت أبراج أحاطت بنا بعد ذلك. والتي علمنا أن اسمها أبراج «فرميليون» ولا أحد يعرف من أسسها قبل بناء الحمرا. ويفترض البعض أن الرومان كانوا قد بنوها، بينما يعتبرها آخرون مجرد بقايا مستعمرة «فينيقية». وبعد نزولنا عبر زقاق منحدر وصلنا إلى ساحة برج عربي ــ مراكشي التصميم يمكن المرور عبره إلى المدخل الرئيسي للحصن. حيث هناك أيضاً مجموعة أخرى من الحراس المجندين عديمي الأهمية. يمتطي أحدهم حصاناً للحراسة. بينما يلتف الآخرون بعباءاتهم وينامون على صخور مجاورة. وتسمى فرقة الحراسة هذه: حراس باب العدالة. وهم من عماماتهم وزيهم الموروث منذ الفتح الاسلامي إلى اليوم يشبهون العرب. وفوقهم نقشت الآية الكريمة: «اذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل».

أما القوس الكبير فوق البوابة فهو على شكل قوس عربي. أشبه مايكون بحدوة الحصان. وهو بنصف ارتفاع برج كامل. وفي الحجر الرئيسي في وسط هذا القوس صورة يد ضخمة محفورة بالصخر، وهي رمز اسلامي، ترمز اليد فيه إلى الانسان، والأصابع الخمس إلى أركان الاسلام الخمسة وهي: (الصوم وطهارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد ضد الكفار[8] وبجانب اليد المحفورة في الصخر، مفتاح محفور أيضاً في الصخر وهو يرمز إلى مفتاح الإيمان الذي انتقل من «داود» إلى الرسول (ص). ففي التوراة: «سألقي مفتاح داوود على عاتقه ـ على كتفي الرسول القادم ـ ليفتح مالايغلقه أحد، ويغلق مالايفتحه أحد». وقيل لنا إن هذا المفتاح كان رمزاً للمسلمين في مقابل الصليب عند النصارى عندما غزوا الأندلس، ويعني رمز قوة الفتح الاسلامي. الا أن هناك تفسيراً آخر تكرم بإعطائنا إياه ابن الحمرا، على عادة كل العوام الذين يلصقون السحر والغموض بكل شيء عربي، ويتطيرون من كل مايتصل بهذا المعقل الاسلامي. لذلك أخبرنا «ماتيو»: أن الأمر يتعلق بتقاليد قديمة لسكان الحمرا، عرفها من أجداده. وتؤكد أن اليد والمفتاح أدوات سحرية تتصل بتحديد مصير الحمرا، وعليها يعتمد بقاء هذه المدينة

فالملك العربي الذي بنى الحمرا كان ساحراً كبيراً. باع نفسه للشيطان كما يؤكد البعض. لذلك وضع كل هذا الحصن تحت هذا الرمز الذي يشكل تعويذة سحرية. وهذا هو السبب الذي أبقى الحمرا كل هذه المئات من السنين رغم كل عوامل الطبيعة والزلازل، بينما تهدمت باقي بيوت العرب هناك ؟! وتذكر التقاليد أن هذه التعويذة ستظل إلى أن تصل اليد المنحوتة وتقبض على نحت المفتاح. آن ذاك سيتداعى القصر كله إلى حطام، وتظهر الكنوز التي دفنها العرب تحته؟!

أما أنا اليوم فلم أتحمل هذا التنبؤ الساذج، لذلك استمررت بالسير عبر البوابة تحت هذه التعويذة المفترضة، وأنا أشعر بضعف الثقة بفن سحري يحميه تمثال العذراء فوق البوابة؟!

وبعبورنا للبوابة واجهنا نزول بخط ضيق بين الجدران، ينفتح بباحة داخل الحصن تسمى: «مكان الأحواض». حيث تحتها خزانات المياه الضخمة التي حفرها العرب بالصخر ليجمعوا فيه الماء الذي يصل إلى الحصن من «دارو» ـ دارق

---

(8) :الحديث المشهور : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أجل تزويد المكان بالماء. وبها أيضاً بئر عميق يخرج منه ماء بارد جداً. كعلامة أخرى على ذوق العرب الرفيع كشعب يهتم دوماً بكل عنصر نقي.

لكن خلف هذه العظمة ينتصب نصب «شارل الخامس» الضخم، والذي وضع هنا كما قيل لنا لكي يخسف ذكرى ملوك العرب. ولهذا السبب أزيل بناء المشتى من قصر العرب ليفسح المجال لهذا النصب، الذي سد المدخل الرئيسي للقصر. فصار المدخل إلى قصور العرب حالياً يمر عبر ممر جانبي صغير وحقير في زاوية المكان. ورغم ضخامة نصب «شارل الخامس» والفن المعماري الراقي المسخر له، بدا لنا كدخيل في هذا المكان، لذلك مررت بجانبه مرور المسلم الغاضب من الصنم.

ووقفنا بعد ذلك ننتظر السماح لنا بالدخول، مع «ماتيو» الذي فرض نفسه علينا، وراح يخبرنا أن العناية بالقصر الملكي بعهدة سيدة تدعى «دونا أنطونيا مولينا»، ويسمونها حسب الطريقة الاسبانية: العمة أنطونيا. وهي التي تعتني بالقاعات العربية وتنظم الحدائق وترشد الزوار. وبينما نحن نتحدث فتحت الباب سيدة أندلسية ذات عينين سوداوين، خاطبها «ماتيو» باسم «دولوريس»، وهي تبدو لماحة النظرات وتستأهل أن يكون لها اسم أكثر إشراقاً. ثم همس «ماتيو» لي بأنها ابنة أخت العمة أنطونيا. بينما كنت كمن وجد فيها كما في القصص الخيالية ـ أسطورة ستقودنا إلى عالم سحري من زمن غابر، كمن يمزق لنا الزمن لنشهد قصة عربية بعالم شرقي آخر. فلا شيء أكثر تعارضاً مما بداخل هذا المكان عن خارجه بدا بمجرد أن دلفنا إلى قاعة فسيحة بطول مائة وخمسين قدماً، وبعرض ثمانين قدماً، معبدة بالرخام الأبيض، ومزينة بكل ركن فيها بالزخارف العربية الآخاذة، حتى لتشعر وكأنك بمعرض لهندسة عمارة المنمنمات. فأحجار الزفير[9] الكريمة التي تتداخل في الجدران تبدي شخصية الفن العربي المعماري الرفيع، مع تكرار الشعار السابق للحمرا في أماكن مختلفة. كما تظهر عظمة وروعة الفسيفساء. وفي وسط القاعة «فستقية» ضخمة بطول أربعة وعشرين قدماً، وبعرض سبعة وعشرين. وتسمى هذه القاعة بقاعة «البركة». وتسيّج هذه الفستقية الورود، ويسبح السمك الذهبي في مياهها.

---

(9) : نوع من الأحجار الكريمة ـ المترجم ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم إجتزنا قاعة «البركة» عبر قوس عربي لندخل إلى قاعة السباع، التي يمكن القول : بأن الزمن لم يؤثر عليها أبداً. حيث في وسطها البركة الشهيرة في الشعر والأدب. والإثنا عشر سبعاً التي أعطت هذه القاعة اسمها لازال يخرج الماء الصافي من أفواهها وهي مركوزة حول القاعة تماماً كأيام أبي عبد الله. لكن على الأغلب أن سبب كون السباع منحوتة بشكل سيء هو أن الذي نحتها كان نحاتاً مسيحياً أسيراً.

والقاعة محاطة ببسرير من الزهور، كان بينها ممرات رخامية جميلة، لكن الافرنسيين عندما كانوا هنا عمدوا إلى وضع ممرات حجرية تدل على ذوق سيء. أما في الزوايا الأربعة للقاعة فقد حفرت زهور الأوركيد على دعائم عواميد رخامية بيضاء، بفن معماري أنيق ورائع يسم كل هذا القصر ويدل على ذوق رفيع، كما يشعر بالبهجة. والغريب كيف بقي هذا العمل الفني المرهف الناعم كل هذه المدة، ونجا من عوامل الجو، ودموع القرون، وهزات الأرض، وقسوة الحروب؟! ألا يمكننا أن نعذر التقاليد الشائعة بعد رؤية كل هذا الجمال بأنه محروس بعمل سحري؟! وبجانب قاعة السباع هذه باب مزركش يفتح على قاعة «ابن سراج» الذي يقال إنه قام بإعدام عدد كبيرٍ من الفرسان هنا. والبعض يشك بكل هذه القصة. لكن «ماتيو» الساذج أشار فوراً إلى المدخل الذي أدخل إليه الفرسان واحداً إثر واحد من قاعة السباع، إلى البركة التي تلقت رؤوسهم المقطوعة. ولم يكتف بذلك بل أرانا بقعاً من الصدأ القديم على رصيف البركة، مدعياً أنها آثار دمائهم، والتي لايمكن إزالتها حسب المعتقد الشائع.

ولأننا نسمع له ونجاري مايقوله بسهولة، أضاف أنه يسمع أحياناً في الليل، وفي قاعة السباع بالذات أصواتاً مشوشة خافتة تشبه الهمس، وكذلك طرطقات سلاسل حديدية، وهي من أرواح الذين قتلهم المجرم «ابن سراج». فالمكان المسكون بارواحهم ليلاً حيث يستعيدون آلامهم، مطالبين بثأرهم ممن كان سبباً لدمارهم.

والواقع أن هذه الأصوات ناتجة عن حركة الماء في مجاريه التي توصله إلى البركة ، كما تبينت ذلك لاحقاً، دون أن أبرز هذه الفكرة لروائي قصر الحمرا المتواضع الإمكانات هذا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن تشجعه من قبولي السهل لما يقول جعلـه يضيـف مـا ادعـاه أنـه حقيقـة لاشك فيها عرفها عن جده وهي:

أنـه كـان هنـاك جنـدي يرشد السـواح إلى القصـر، وعنـد غسـق إحـدى الأمسيات، سمع وقع خطوات في قاعـة ابـن سـراج، فتوجـه للمكـان عـلّ بعـض الغرباء قد ضل طريقه ليرشدهم، لكنه بدلاً عن ذلك ولشدة استغرابه، شاهد أربعـة عرب بزيهم الفخم وعمائمهم اللماعة التي توضـع الجواهـر في مقدمتهـا، يتمشـون بهـدوء في القاعـة جيئـة وذهابـاً. وحـين رأوه توقفـوا واسـتداروا نحـوه، ففـر هـذا الجندي الكهل، ولم يعد يجرؤ أن يدخـل ثانيـة إلى قصـر الحمـراء. فـأدار بذلـك ظهره عن ثروة ضخمة، لأن هؤلاء الأموات كمـا يعتقـد «مـاتيو» يريـدون أن يدلـوا الناس على كنوزهم الخفية. بدليل أن من حل محل هذا الجنـدي كـان أنبـه منـه لأنه أتى إلى الحمرا فقيراً، لكنه بعد سنة ذهب إلى «مالغا» ـ ملقا ـ واشترى مـنزلاً وعربة، ولا زال يعيش هناك كأثرى ما يكون. لأنه عرف السر الذهبي مـن هـؤلاء الأموات العرب برأي «ماتيو»؟!

ومعلومات ـ مـاتيو ـ الـتي أطلعـني عليهـا، علـى افـتراض أنـني أصبحـت صاحبه، وتنبؤاته التي لا أنظر إليها أكثر من أنها أوهام، ربما ركام عقلية غبيـة، قررت أن أتعرف عليها بصورة أكثر.

وهكذا تابعنا التجوال عبر مدخل مزين بشكل ثري، مقابل غرفة ابن سراج، إلى قاعة أقل صلة بالحوادث التراجيدية. معبدة بالرخام الأبيض، ومضيئة مشـرقة بكل زينتها المعمارية، تحمل اسم: قاعة الأختين، المكتوب اسماهما على رصيـف القاعة، والمخرب أحدهما على ظـن أنهمـا رقيقتـان مـن العبيـد. وقـد أكـد ذلـك «ماتيو» بشدة. بينما يعتبرهما آخرون مجرد جميلتين عربيتين رومانطيقيتين سـكنتا هذه القاعة، التي كانت جزءاً من قسم الحريـم. وقـد أيـدت هـذا الـرأي مضيفتنـا حوراء العينين «دولوريس» وقالت: إنها علمت أن هذه القاعة كـانت تابعـة لشـقة النساء. وكما ترى أيها السنيور: كل هذا الجمـال الرائـع الشـبيه بـالمتحف الفـني المطل على ما يشبه الكنيسة، هو بسبب أن نساء العرب كن مثل الراهبات اللواتي يشهدن القداس من وراء حجاب. لأن ملوك العرب كانوا يعزلون النساء كما تعـزل الراهبات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعبر هذا الروشان ـ الخص ـ تستطيع النساء مشاهدة الراقصين وعروضهم الترفيهية، دون أن يراهن أحد. أما على طرفي القاعة فقد فرشت المطارف والحشايا حيث يجلس سيد القصر آن ذاك لتتجسد أمامه كل أحلامه الشرقية.. والضوء يخترق القاعة من الأعلى، بينما من جنباتها تمر تيارات هوائية لطيفة، وينساب إلى الأذن معها همهمة خرير الماء المنعش من بركة السباع، وما يلحق بها من مسابح حدائق «ليندا راكسا» ـ ليندا رقصا ـ.

ولعله من الصعب على القارىء تتبع هذا المشهد بدقة، دون معرفة بقصص الحب العربية المتصلة به. فبإمكانك أن تتصور الأيدي البيضاء البضة ـــ للأميرات الغامضات وكما لو أنها تخرج من تلك التحف المعروضة، أو تتخيل عيوناً دعجاً تلمح خلف تلك «الرواشين» في الشرف. وكأن هذا الجمال الأخاذ يوحي بساكني الأمس البعيد قريباً. ولكن؟!! من هما هاتان الأختان «زريدا» و«ليندا رقصا»؟! اللتان يزود الماء البارد حمامهما، مجلوباً من الجبال بأقنية عربية طويلة، تدور حول القصر وتتراقص لامعة بمجاريها الرخامية. وبعد ان تدفع جزيتها للقصر الملكي بأن تزود حدائقه وأقسامه، تنزل عبر طريق طويلة إلى المدينة. لتعود وتندفع في نوافيرها، لكي تصون خضرة وجمال الحمى ككل.

ولا يقدر نعمة هذا المكان إلا الذي يعرف حر هاجرة الجنوب. فالهواء العليل القادم من الجبال. والمحمل بشذى السهول يصل إلى الحمرا قبل المدينة الأكثر حراً تحتها. ويلعب هذا الهواء الرقيق القادم من «سيرا نيفادا» بقاعات الحمرا، مدخلاً معه عبق الأزهار المجاورة. وبينما تتراءى لك ومضات عيون سوداء وراء خص الروشان، تمتلىء الأذن بهمهمة تصاحب خرير الماء المجاور. وكأنه قد سخر كل ما هو موجود من أجل نعيم هذا المكان.

وهدفي من هذا الوصف العام لأقسام القصر الرائعة، هو أن أعطي فكرة عامة للقارىء لما سآتي على تفصيله، حتى يتحرك معي بشوق من يألف هذا المكان يوماً بعد يوم، قبل عرض تفاصيل القصص فيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظة حول
«الهندسة المعمارية العربية»

يبدو «الأرابسك» للعين غير الخبيرة، والذي يزين جدران قصر الحمـرا، أنـه مجرد عمل من حفر اليد. لكن التفاصيل الدقيقة فيه لا تظهر إلا للعين الفاحصـة، التي عليها أن تراعي عمومية الانسجام في متغيرات تلك التفاصيل المذهلة. ويمكننا أن نعمم هذا الأمر على كل النمارق والمنمنمات التي تزينها، أو التي تزين الأوانـي والأدوات الأخرى، فتضفـي عليهـا صفـة سماويـة سـامية. ونحـن حـين نكتشـف زخارف المرمر على صحون الدار نجد مطابقات شكلية لأشـكال مربعـة ومسدسـة ومثمنة واثني عشرية، لا تكف عـن التشـكل أمـام عـين النـاظر بصيـغ مختلفـة، حسب زاوية منظور الرؤيـة لهـا. وهـي أبدعـت أول مـا ابدعـت في دمشـق، لكـن التحسين عليها حصل في المغرب ــ العربـي ــ ممـا أضـاف خطـوة إضافيـة رائعـة للأرابسك السوري، فأبدع تفـاصيل زخرفيـة إضافيـة بديعـة، ممـا جعـل العمـارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنحت ـ العربي ـ يشكل فناً قائماً بذاته. أما المبدأ الذي تقوم عليه كل هذه الروعة التي ترضي كل تصورات الخيال السماوية، فهو بأساسه بسيط، شأن كل المبادىء الهامة في الوجود. إذ على الفنان أن يرسم الخطوط والدوائر على الحائط المراد زخرفته، بزوايا متقاطعة. تماماً كما يفعل الرسام الذي يريد أن ينسخ صورة ما. وفوق هذه الخطوط والدوائر ترسم أحياز المربعات والمثمنات المتقاطعة. ثم يبدأ العمل بكل واحدة منها ليؤكدها ويوضحها ثقة الفنان. مدخلاً القطع الخشبية أو الرخامية أو الحجرية النفيسة حسب مقاساتها الدقيقية بكل نتوءاتها على المخطط الرئيسي. مستعملاً الكثير من الغراء في تثبيت هذه الزخارف، ويرسم على فواصل الغراء بذاته ألواناً زاهية، جاعلاً من الغراء النافر جزءاً أساسياً من التصميم. كمن يضع الغراء على بيضة مثلاً فيصبح نافراً ثم يلونه. أما الألوان التي كانوا يستعملونها فقد كانت ألواناً مجلوبة من الطبيعة، تماماً كتلك التي استخدمها الفراعنة ومن بعدهم الاغريق. لتعود وتظهر مع العرب في الحمرا، سواء كان الفنان عربياً مشرقياً أم مغربياً ـ مور ـ أندلسياً. ولهذا السبب بقيت تلك الألوان عبر القرون.

أما الجزء السفلي من الجدران في القاعات، فيشكل إطاراً لهذه اللوحات الحفرية، بارتفاع عدة أقدام، وبه خلفيات لونية مختلفة، وعلى بعضها أسماء ملوك الاسلام وشعاراتهم، وتسمى باللغة العربية: «الزُلاّجْ». وهو أيضاً من أصول مشرقية. ونظافة ونصاعة هذه الأطر تضفي شعوراً بالبرودة يتلاءم مع الجو الحار المحيط، كذلك تُعبّد أرضيات النوافير بها أيضاً، إضافة إلى غرف الاستحمام والنوم. كذلك تضفي هذه الأطر على الزخارف فوقها نوعاً من القدَم، خاصة إذا كان بها نصوص قرآنية مقدسة، غالباً ما تكون بألوان زاهية بين الزرقاء إلى الزفير. كالنص القائل: «يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمرجان» (الرحمن 22).

أما السيراميك أو البورسلين فقد أدخل إلى إسبانيا مع بداية الفتح الاسلامي، ويمكن رؤية بقاياه في خرائب بيوت العرب المغاربة هناك. فمنذ القرن الثامن الميلادي إلى اليوم لا زالت صناعته قائمة في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا زال يستخدم في البيوت الإسبانية الراقية، وخاصة في المقاطعات الجنوبية، حيث تزين وترصف به البيوت الصيفية بشكل خاص.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقام الإسبنيارد في جهتهم بتصديره إلى «نيزرلاند» عندما احتلوها، ومن هناك تبنى الهولنديون هذه الصناعة، لأنها تلائم طبعهم في حب نظافة بيوتهم. وهكذا وصل هذا الاختراع العربي تحت اسم «الزلاج» للهولنديين(10) واشتهروا به.

---

(10) : الهولنديون هم الذين اسسوا مدينة نيويورك، وظلوا يشكلون الجالية الرئيسة فيها، حتى وصلتهم الهجرات الإيرلندية والإيطالية ثم البولندية الهاربة من الإضطهاد الديني لأسباب مختلفة، وأخيراً الهجرات الزنجية من جنوب الولايات المتحدة الأميركية إبان الحرب الأهلية فيها. ثم أعقبهم اللاتين من بورتوريكو وكوبيين، فاليهود بعد الحرب العالمية الأولى والثانية حيث سيطروا على الولاية اليوم، ولازالوا في نزاع قوي مع الجاليات الأساسية فيها.

ـ المترجم ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مفاوضات عامة

توصل المؤلف إلى قصر أبي عبد الله

هكذا مضى معظم النهار دون أن نتمكن من انتزاع أنفسنا من هذا المكان الشاعري الرومانسي. فعلينا أن ننزل ثانية إلى المدينة، لنواجه واقعنا في ذاك النزل الاسباني. لكن كانت معنا رسالة للحاكم الإسباني للمدينة، فزرناه بطريق عودتنا كي نوصلها له. وأعربنا له بحماس عن عجبنا من عدم سكناه قصر الحمرا، وبقائه في المدينة. لكنه بين لنا أن الصعوبة ترجع إلى بعد القصر عن المدينة، فهو على قمة الرابية حيث تصعب اتصالات العمل. وهو كذلك مكان يصلح للملوك الذين هم بحاجة إلى أسواره لتعصمهم من رعاياهم. وبعد أن لفت نظرنا إلى ذلك أضاف: إذا كنتم ترغبون بالسكن هناك فشقتي في الحمرا تحت تصرفكم؟!

ولأننا نعرف أن محط الحديث عند الإسبنيارد، هو ضرورة إخبار مضيفه أن بيته هو بيته كمجاملة عامة، يجب أن يرد عليها بعدم القبول، وكذلك عدم قبول ما يعجبك في منزله حين يقدمه لك فوراً. كدلالة على كرم عندك. كدنا أن نفهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من عرض الحاكم لشقته الملكية هذا النحو. لكننا كنا مخطئين. إذ أن الحاكم كان يعني ما يقوله حين أضاف: ستجدون غرفة غير مفروشة، ولكن العمة «انطونيا» المسؤولة عن القصر يمكنها أن ترتبها لكم، كذلك ستعتني بكم طوال إقامتكم، فإذا نحن رتبنا الأمر معها سيكون قصر الملك «شيكو» تحت تصرفكم!!.

وبمجرد أن لمسنا محمل الجد في كلام الحاكم عدنا فوراً دون أي تأخير إلى الباب الرئيسي الكبير للعدل، لنفاوض العمة «أنطونيا»، ونحن نشك فيما إذا كنا بعلم أم بحلم، واثقين من أن لنا صديقاً سيساعدنا في هذا الأمر من القصر هو: لامعة العينين «دولوريس» التي أظهرت لنا طيبتها من أول لحظة، متمنية عودتنا إلى القصر بلغة عينيها الثاقبتين.

وهكذا سار كل شيء على ما يرام، فالعمة أنطونيا قامت بفرش الشقة، رغم كل تأكيداتنا بأننا مستعدون أن ننام على الأرض، وعدم مطالبتها بأكثر مما تؤديه بطريقتها البسيطة في تهيئة الغرفة، بينما راحت ابنة أختها دولوريس ترمقنا بنظراتها عندما تم كل شيء ونحن نرمي بقبعاتنا في الهواء فرحاً.

ثم نقلنا في اليوم التالي متاعنا إلى القصر، مشاركين بدورنا في هذا الملك المقسم، ومرت الأيام كالحلم. لكن مرافقي وصديقي اضطر بعد عدة أيام إلى العودة إلى «مدريد» من أجل واجب «دبلوماسي» كان ينتظره هناك، ليتركني متوجاً وحدي في هذا الملك المنعزل. وأنا أطلق كل فضولي في مشاهد روعته، باحثاً عن كل ما يجب أن أعرفه عن هذا القصر المسكون؟! وسأودع القارىء أسرار كل ما شاهدته، وما أعرفه عن هذه الحضارة بكل بحوثي حولها، لثقتي فيه وشعور صداقتي إزاءه. فإذا كانت لدي القدرة على نقل ما أنا معجب به إلى تصوراته من كل هذا السحر، لن يمل التجوال معي في هذا القصر الأسطوري، قصر الحمرا.

ومن أجل هذا الغرض أبدأ بإعطاء القارىء فكرة عن أثاث شقتي هناك، والتي هي طبعاً أقل بكثير من أثاث أسلافها، من شقق الملوك بنفس هذا المكان.

فأنا قد أقمت بنهاية شقة الحاكم، التي كانت فارغة تماماً والمطلة على منظر رائع اسمه: «مكان الأخوة»، والمؤثث بأثاث حديث. وفي نهاية الطرف المواجه لغرفة نومي، تتصل غرفة صغيرة نصف تصميمها عربي، والنصف الآخر اسباني. متصلة بدورها بشقة العمة أنطونيا، التي تصون القصر كما تصون منزل عائلتها، وتوجب على زوار القصر المتطلبات الضرورية منهم، كما تنسق هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيدة المسنة الأزهار وتزرعها وتنتجها، وتبيع ثمار الفواكه في القصر «ضمانة»، وتعطي قسماً من ذلك إلى الحاكم على شكل هبات من الثمار والأزهار. أما عائلتها فمؤلفة من ابن أخ وإبنة أخت، وابن أخيها «مانويل» شاب صغير ذو جاذبية إسبانية، كان قد خدم في الجيش في إسبانيا وجزر الهند الغربية. لكنه الآن يدرس الطب، على أمل أن يصير في يوم من الأيام طبيباً لحامية القصر. وهي وظيفة تدر حوالي 140 دولار في السنة. أما ابنة أختها دعجاء العينين اللامعتين «دولوريس» التي سبق لنا ذكرها، فمهيأة لأن ترث في يوم من الأيام مركز خالتها المرموق في الحصن. وقد تأكدت من «ماتيو أكزيمنس» أن أجر ذلك 150 دولاراً في السنة وهو ميراث ضخم كما عبر عن ذلك ابن..... الحمرا. وكذلك أخبرني هذا المراقب الموثوق، أن العلاقة بين أبناء الخؤولة قوية ولا يمنعهم من الزواج إلا انتظار شهادة الدكتوراه، وموافقة البابا على زواج الأقارب هذا.

وكنت من جانبي سهل الإرضاء، بعد أن أنجزت العمة الطيبة أنطونيا التزامها بنقلي إلى الشقة، خاصة وأن دولوريس بطيبتها ومرحها دوماً توضب شقتي بشكل جيد، وتقدم لي الطعام الذي تعده بيدها في كل وجبة. وكان تحت تصرفي خادمٌ أشقر اسمه «بي بي» كان يعمل أساساً بالحدائق. مما أشعر ابن الحمرا بضرورة التنافس معه آخذاً بالتداخل في كل مشاريعي منذ أن التصق بي يوم لقيته على باب الحمرا. حتى أنه عين نفسه مرافقاً لي، ومرشداً، وحتى حارساً ومرجعاً تاريخياً؟! لذلك كان علي أن أحسن من هندامه، حتى لا يسيء ذلك إلى عمله ككل. فنزعت عنه عباءته البنية القديمة، كما تنزع الأفعى جلدها، وأصبح يتبختر في الحصن بقبعة أندلسية وجاكيت جديد، مبدياً الرضا إزاء استغراب زملائه. فتصور نفسه على أنه مهمٌ لدرجة دفعته إلى التدخل بمستخدمي. فأظهرت له عين المراقب من خلال طبعي الهادىء. وهو بذكائه بالمقابل كان يحاول أن يظهر أنه دوماً تحت أمري. لدرجة ـ مزعجة ـ فلا أكاد أطأ أي مكان في القصر إلا ويهرع لمساعدتي بشرح كل ما أراه. وإذا أردت التجول في التلال المجاورة، أصر على حراستي، وأسرع ليلحق بي. وكلي ثقة بسرعة رجليه لا بقوة ذراعيه في حال أي هجوم.

إنه وعلى كل حال ساذج مسكين، ولديه حسن دعابة مسل يشبه حلاق القرية الذي يعرف كل ما يشاع هنا. إلا أنه يضخم من قيمة هذه المعلومات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحلية، وينسب للناس قصصاً شبيهة بما ينسبه من قصص لمشاهد القصر وأبراجه، ويصر على تأكيدها بإيمان ساذج.

وهذه المعلومات في معظمها استقاها من جده حسب قوله. ذاك الخياط الأسطوري الذي عاش مئة سنة، سافر خلالها مرتين خارج الحمرا. أو أصدقاء جده الذين يغص بهم متجره حتى منتصف الليل، وهم يتحدثون عن الأيام الخوالي؟! والأحداث الهامة والمخابئ السرية للقصر. ولحسن الحظ لم تمت هذه المعلومات بموت هذا المؤرخ الخياط الملتصق بجدار الحمرا، حيث ولد وعاش ومات ودفن، فتوارث «ماتيو» معلوماته وظل راوية حديث موثوق عن جده، وأحد حواريه من متجر الخياطة. لذلك هو مؤتمن على معلومات قيمة عن الحمرا، لا يمكن أن توجد في الكتب، وتستأهل اهتمام كل سائح.

هؤلاء كانوا مستخدمي الذين أشك أنه كان لدى من كان قبلي مسلماً كان أم مسيحياً في هذا القصر مثلهم، بمثل هذا الاخلاص أو بمثل هذه الطريقة في الترويج.

فعندما أستيقظ يحضر الغلام الثأثاء «بي بي» الأزهار من الحديقة. ثم تنظمها بعد ذلك دولوريس في المزاهر وتعطي لترتيب غرفتي لمسة أنثوية. ثم أتناول الإفطار في القاعات العربية أحياناً، وأحياناً تحت ظلال الأوركيد في قاعة السباع. محاطاً بالنوافير و الزهور، ولكن عندما أخرج يرافقني «ماتيو» إلى أحسن النزه الزومنطيقية الجبلية، ولا يتركني دون خبر عن كل ما أرى؟!.

لقد كنت أقضي معظم أيامي وحيداً، ونادراً ما ألتحق بحلقة السيدة العمة أنطونيا في المساء. حيث تعقد غالباً في قاعة عربية، تجلس فيها العمة المسنة وهي تهيء الطعام للطبخ وحولها الأهل والأصدقاء. لكن المدفأة التي وضعت حديثاً بزاوية هذه القاعة، التي كان بها بريق أيام العرب، وخاصة «في التراس» الذي لا زال باقياً فيها، أدت إلى تغيير ألوان الجدران بسبب دخانها. مما يكاد يقضي على الأرابسك العربي في القاعة. لكن في القاعة نافذة تطل على شرفة تشرف على وادي «داره» يمكنها أن تدخل الهواء المسائي العليل لو فتحت. وكنت إذا حضرت أتناول عند العصر الفواكه والحليب، وأتحدث قليلاً مع العائلة. فالإسبان يتمتعون بذكاء فطري يجعل منهم أناساً جيدي الصحبة. مهما نقصت مرتبتهم الاجتماعية أو ثقافتهم. زد على ذلك عدم تهتكهم، لما هو مطبوع بهم من كرامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روحية وراثية. والفاضلة العمة أنطونيا من هذا النوع غير المثقف، وكذلك لامعة العينين دولوريس قليلة الثقافة، فهي لم تقرأ أكثر من كتاب أو اثنين في كل حياتها. مما جعلها خليطاً من السذاجة والحس المرهف. إذ تفاجئني غالباً بتعبيرات تدل على حس جمالي عال. أما ابن خالتها فأحياناً يقرأ لنا بعض القصص الكوميدية ليرفه عنا من جهة، ويزيد معلوماته من جهة أخرى، بقدر ما يرغب بتسلية ابنة خالته دولوريس، لكن لخيبة أمله تنام السيدة الصغيرة عادة قبل إنتهاء الفصل الأول. وتأتي إلى حلقة العمةأحياناً إحدى زوجات سكان الحصن، أو إحدى زوجات العسكر فيه، وهن يعتبرنها الأكثر ثقافة وفهماً، لأنها قبل كل شيء المسؤولة عن كل الحامية. لذلك يزودنها بالمعلومات كجزء من واجبهن تجاهها. وأحياناً يتحدثن عن الشائعات المتداولة في غرناطة. والواقع أن استماعي إلى هذه الجماعات المسائية أحياناً جعلني أخرج بالكثير من الحقائق الهامة، التي سمحت لي بتشكيل لوحة عن الخاصية التي يتميز بها هذا الجوار والمواطنون فيه.

ولعله من غير المهم ذكر تفاصيل هذه التسلية البريئة هناك، لولا وجود القصر. فأنا بمكان يسكنه الماضي ومحاط فيه بصحبة رومانطيقية. خاصة وأن هذه المدينة كانت موضوع حلمي الواعي منذ نعومة أظفاري حيث كنت أقرأ على نهر الهدسون[11] قصص «جني بيرز دو هيتاس» تلك القصة عن فروسية الحرب الأهلية في غرناطة. وفرسان الإقطاع هناك، أمثال «زعزير» و«ابن سراج». وكثيراً ما تصورت بخيالي صالات قصر الحمرا. والآن أستعيد من الواقع، وألتقط بالحواس تصوراتي تلك. إذ أنني حقاً وفعلاً أسكن قصر أبي عبد الله، وأنظر حقاً من شرفاته إلى مدينة الفروسية غرناطة. وها أنا ذا أتجول بهذه القاعات الشرقية، وأسمع خرير مياهها وغناء العندليب على أفنانها، وأستنشق عبير زهرها الفواح. وأشعر بأثر الطقس على سكانها. حتى لقد ظننت نفسي أسكن الجنة الحقيقية التي وصفها النبي محمد «ص». وأن الحوراء براقة العينين دولوريس، إحدى تلك الحوريات فيها المكرسات لسعادة المؤمنين الاخروية.

---

(11) : نهر ضخم يفصل بين ولايتي نيوجرسي ونيويورك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سكان الحمرا

لاحظت التناسب العكسي بين عظمة القصور التي تسكنها بيوتات الملك في أوج سلطتها، وبين حقارة سكانها عندما تنهار وتهجر. وكيف أن قصور الملوك تعود مع الزمن لتصبح أوكار لصوص ومتكدين.

والحمراء تسير في اتجاه هذا التغير بسرعة، فكلما انهار برج من أبراجها، سيطرت عليه أسرة وضيعة، لتسكنه برفقة البوم والوطواط. رافعة أعلام الفقر والضعة العائلية، بحبال الغسيل الذي ينشر من النوافذ والشرفات.

هكذا كنت اراقب مشاهد هذا التعدد بالصيغ، بين الملكيات التي كانت تحكم في القديم، ووضعها الحالي اليوم، الذي كأنه إعلان عن نهاية مأساوية لكل نبل إنساني. لذلك يكثر هنا مدعو الأصول النبيلة، أمثال: «ماريا انطونيا سابونا» التي تدعي الانتساب إلى أسرة «كوكلي» الملكية. ولا أحد ـ كما تقصيت ـ يعرف أصلها، كما أنها هي بحد ذاتها أصغر من أن تكون استمراراً لأي أسطورة. وهي تسكن غرفة أشبه بخزانة تحت درج القصر، وتجلس طول النهار على صخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدهليز المجاور تغزل الصوف، وتغني من الصباح إلى المساء، مستعدة لأن تمزح مع كل من يمر. لأنها أمرح كل النساء رغم كونها أفقرهن. كما أنها تتمتع بموهبة قصصية، فلديها قدرة على اختلاق حكايا تفوق حكايا «ألف ليلة وليلة». وقد سمعت بعض حكاياتها في حلقة العمة أنطونيا المسائية، حيث أحضرها بتواضع المستمع. وأشعر بضرورة وجود نوع من الموهبة عند هذه المرأة الصغيرة الحجم الكبيرة السن، تمكنها من سرد كل هذه الحكايات الخيالية. كما أنها تجسد كل حظ عاثر وقبح في الحجم الصغير. والفقر، حين تعد لك خمسة أزواج تعاقبوا عليها، وتضيف خمسة ونصفاً. أما هذا النصف فهو الزوج الذي مات أثناء حفل زواجه منها.

ويماشي هذه الشخصية الخيالية تقريباً، رجل صغير الحجم، له أنف كأنه قنينة ملصوقة بوجهه، يلبس قفطاناً رثاً قذراً، وعلى رأسه طاقية زيتَ جلدها من الاتساخ. وهو أيضاً من الأبناء الشرعيين اليوم لقصر الحمرا. فقد قضى كل حياته في القصر، فعمل مساعد حارس، ومنظف كنيسة، وواضع علامات على قواعد الأبراج... الخ. وهو أفقر من جرذ قذر، لكنه يتظاهر بكرامة من ينحدر من سلالة «أغويلار» التي منها ظهر «غوتزا فلو القرطبي» الكابتن المشهور. وأكثر من ذلك حمل هذا الجرذ اسم «آلونزو دي أغويلار» وهو نفس الاسم الذي ذكر كثيراً في حروب إعادة فتح غرناطة. والذي أعطاه «البابا» لقب: «الأب المقدس». كلقب كنت أظنه مقدساً عند الكاثوليك لدرجة لا تمكنهم من تركه لهذا المخلوق أمامي. والذي يدعي التحدر من ذاك الرجل الذي كان يمثل مرآة الفروسية الأندلسية. والذي كان يحتل مركزاً مرموقاً بين من فتحوا في يوم من الأيام هذا الحصن. وكل هذا يشبه رؤية شحاذ في خرائب «طروادة» يقول لك: إنه من سلالة «أفيلس» أو «آغا ممنون»؟!

ومن هذا الخليط الاجتماعي الحواري الملتصق بي «ماتيو أكزيمنس» والذي شكل ركناً أساسياً من أركان هذا الاختلاط. فهو يدعي أن أسرته سكنت هذا الحصن من يوم فتحه. وكأنه نتيجة ذلك قد ورث الفقر أباً عن جد. فوالده ورث مهنة الخياطة من جده صانع الضمادات، وهو يعيش اليوم بتخشيبة بناها بيده فوق الباب الحديدي، ويعمل شبه خادم يضع في تخشيبته نفايات الأثاث، من سرير سيء الصنع وعدة كراسي مهشمة، إلى صندوق خشبي به أخلاط الثياب الرثة، إضافة إلى شجرة العائلة. المؤلفة من مجموعة من الأوراق المهورة بأختام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العهود المتتالية؟! ولكن ومع ما فيه هؤلاء الناس، يبدون مرحين وغير مهتمين، ويتعرضون دوماً إلى جيرانهم الذين يصرون على أنهم ليسوا استمراراً للمسيحيين الأوائل، بل هم من أصول يهودية أو مغربية. مما جعلني أشك كيف أن غيرتهم على أحسابهم سمحت لهم بأن يكونوا ويستمروا بهذا الفقر، ولا يفخرون إلا بالتصاقهم في هذه الجدران، أو بأسلحة «المركيز» القديم التي يجعلها فقرهم عديمة المعنى، والنفع.

حتى «ماتيو» الذي يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره، قد بذل كل جهده كي يحافظ على سلالته بالاحتفاظ والاستمرار بفقره. تاركاً زوجته وأطفاله بجحر آخر في هذا القصر. فكيف تستمر هذه العائلات بالحياة؟! إن أحداً غير المكشوف عليهم لا يمكنه أن يعرف؟! لذلك كانت معضلة بالنسبة لي معرفة كيفية استمرار سلالات ملوك الإسبان. ولكنها مستمرة. والأسوأ استمتاع هؤلاء بوجودهم هذا. حيث تسير زوجاتهم في ساحات وطرقات غرناطة بمرح، وعلى يد واحدتهن رضيع وحولها نصف دزينة من الأطفال، والبنات العذراوات الأكبر يزين شعرهن بالورود، ويرقصن بالصنجات مرحاً ؟!.

لذلك يمكن القول: ان الحياة تبدو كإجازة طويلة لطبقتين من الناس، الأغنياء جداً، والفقراء، فالأولى لا تحتاج أن تفعل شيئاً، والثانية لأنها ليس لديها شيء لتفعله؟! إلا أن فن أن لاتفعل شيئاً، لا يتقنه أحد أكثر من الطبقات الفقيرة في اسبانيا. اللوم نصفه على الطقس ونصفه الآخر على الحرارة. فإذا أنت أعطيت «الإسبنيارد» الظل في الصيف، والشمس في الشتاء، وقليلاً من الخبز والثوم والزيت، وعباءة قديمة وغيتاراً. فليسر العالم بعدها كما يشاء. وهو لا يعتبر الحديث عن الفقر عاراً، لأنه يجثم فوقه مثل عباءته، ويظل يعتبر نفسه شريفاً وإن كان على البساط.

وتجسد قمة هذه الفلسفة بإبن الحمرا، الذي لا يفعل شيئاً ولا يملك شيئاً، ولا يهتم بشيء. وأنا الذي كنت أتخيل أن أضواء الماضي الذهبي لازالت مشعة في هذا المكان، تماماً كما تصور العربي الجنة السماوية في هذه البقعة من العالم، أرى أمامي أناساً لا يعملون طوال الأسبوع، ويظلون ينتظرون أيام العطل والأعياد، وأعياد القديسين، مثلهم مثل كل كادح حرفي مفترض. وهم يحضرون كل احتفال بالعيد أو الرقص في غرناطة وجوارها، فتشعل المشاعل على الروابي في عيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديس جونز ـ يحيى ـ وتقام حلقات الرقص في حقول المحصول القليل من القمح في القلعة.

إن علي قبل إنهاء هذه الملاحظات أن أذكر ـ للقارىء ـ واحدة من تسليات هذا القصر التي فاجأتني؟! فهم يستعملون شباك صيد السمك لصيد الطيور. وينصبونها في مواقع الدفاع فيه. ولأنني لم أكن أعرف سبب وجودها هذا، سألت «ماتيو» الذي أزال هذا اللغز من أمامي؟!.

إذ يبدو أن هواء هذا القصر العليل يجلب الطيور كما يجلبها قصر «مكبث» ـ في قصة شكسبير ـ فعندما ينهي أطفال هذه السلالات الكريمة المحتد مدارسهم يساهمون بهذه الفخاخ للطيور، كإحدى التسليات، إضافة إلى « كش الحمام» التي يفضلها أبناء الحمرا. فهم حيث لم يعودوا يستطيعون أن يوقعوا أحداً بفخاخ أصولهم وأحسابهم التي اخترعوها، نصبوا فخاخهم للايقاع بالسماء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قاعة السفراء

لاحظت باباً مخفياً غامضاً في إحدى زوايا القاعة التي تطهو فيها العمة «أنطونيا» الطعام وتحضره، حين تستقبل ضيوفها، في إحدى زياراتي لها في هذه الغرفة الشرقية. فأثار حب الاستطلاع لدي، لأنه قد يقود إلى قسم قديم من القصر، ففتحته. لأجد نفسي إزاء دهليز معتم، قادني حين دخلته إلى فسحة درج معتمة تؤدي إلى أسفل برج التجار. فنزلت أتلمس الجدران المعتمة، حتى وصلت إلى باب صغير آخر بأسفل الدرج. ففتحته بصعوبة، وحين دفعته وجدت نفسي وأنا أندفع بذهول إلى الغرفة المواجهة لقاعة السفراء، حيث تتألق أمامي فستقية قاعة ـ البركة ـ «البركا». ويفصل هذه الغرفة عن القاعة معرض «غاليري» أنيق به دعائم مزخرفة بالأسلوب الزخرفي العربي المغربي الرائع. وفي كل زاوية من هذه الغرفة ـ المواجهة لقاعة السفراء ـ مخدع سقفه مزين برسوم غنية، فاجتزتها عبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باب رائع إلى قاعة السفراء. التي كانت مجلساً للملوك العرب هنـاك. وهـي قاعـة بعرض 37 قدماً، وارتفاع 60 قدماً، وتشغل كل الحيز الداخلـي لـبرج التجـار. ولا زالت تحمل كل آثار ماضيها العريق. فالجدران الجميلة المبنى والمليئة بالزخـارف العمارية تحمل كل تصورات العرب عن الجمال. وكذلـك السـقف بـه نفـس المـواد المفضلة من هذه الزخارف وكأنها مرسومة بقلم سماوي به ألوان حية لماعة، ورائعة إلى أقصى درجات الروعة.

لكن شرخاً أدى بالسقف لسوء الحظ إلى إسـقاط عمـود مـن أعمدتـه بسـبب الزلازل، وقد ظل هذا العمود ممدداً عبر القاعة. واستبدل مكانه عمـود جديـد مـن خشب الأرز ليحمل السقف، بجذوعه المتفرعة لكنها المدهونة على شـكل شـرقي. والمشهد ككل يذكر بالسقوف الخشبية التي نقرأ عنها بقصص أمثـال «يوكهـارت» عن الليالي العربية وعن أعمدة هرقل.

وقد محي الجزء الأعلى من القسم الأكبر فوق الشـباك ودمـر. ورغـم ذلـك لا زال يعطي تألقه السابق العظيم، الذي نلمحـه دومـاً بـذاك «القلـم» الفـني العربـي المتألق.

أما العرش الملكي بإزاء المدخل فلازال يحمل طابع الملك «يوسف الأول» الذي أكمل بناء الحمرا، وجعلها سـرير ملكـه. وقـد صمـم كـل شـيء في القاعـة ليحيـط العرش فيها بانطباع مشرق بالروعة والإباء، ولا يماثله نظير بـأي قسـم آخـر مـن القصر. والـبرج الراسـخ المتـين الـذي يحتـوي هـذه القاعـة فـوق مرتفـات الهضبـة المنحدرة على جوانبه ـ يشكل دليلاً آخر على الرسوخ والقوة ـــ وبـه فتحـت علـى الجوانب الثلاثة لقاعة السفراء شبابيك عـبر الجـدران السـميكة. كأمـاكن تشـرف على الخارج. ويصاحب شرفة الشباك المتوسط بصـورة خاصة إطلالـة علـى وادي «دارو» ـ داره ـ ومنه يمكن مد متعة النظر إلى «الفيغا» من بعيد. بينما تظهر أمامـه مباشرة منطقة «البسين» ـ البائسين ـ بطرقاتهـا وشـوارعها، وحدائقهـا الـتي كـان يضمها حصنٌ وكأنه تاج للحمرا. حتى أن الملك «شارل الخامس» عندمـا نظـر مـرة من نفس هذا المكان ورأى هذا المشهد، قال: «سأظل أدين الرجـل الـذي فقـد كـل هذا».

لهذا صارت هذه الشرفة من أفضـل أمـاكن خلوتـي. حيـث أجلـس هنـاك لأستمتع بنهاية غـروب كـل يـوم. فالشـمس حـين تهبـط خلـف الجبـال الزهريـة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للحمرا، ترسل بأشعة ملونة على وادي «داره» وكأنها توزع أنغام قصيدة حزينة على بروج الحمرا. بينما الوادي مغطى بالضباب الذي تتراقص عليه ألوان الغروب هذه، فيبدو من بعيد وكأنه بحر من الذهب. وسكون مثل هذه الساعة الذي لا تهزه ولا نسمة، تخرج منه همسات الموسيقى الخافتة بين الفينة والأخرى من جهة الوادي. فيعطي هذا السكون المخيم حولي ظلالاً تلف الزمن الذي أنا فيه بقوة سحرية تأسر الذاكرة، لتعيدها إلى ذاك الماضي المجيد، تماماً كما تعود أشعة الشمس إلى حضن أمها في الغروب.

وإذ أراقب غروب الشمس عن هذا الركن العربي، لابد من أخذ الاعتبار لتلك الشخصية الأنيقة للعرب التي تتبدى عبر عمارتهم، ومقارنتها مع العمارة «الغوطية» التي تمثل شخصية الفاتحين الإسبان. فالعمارة هنا هي التي تظهر التعارض بين الطبقتين المختلفتين لهذين الشعبين المحاربين، اللذين تصارعا لمدة طويلة من أجل السيطرة على شبه الجزيرة «الإيبيرية» هذه.

لذلك أشعر إلى حد بعيد، أن: دخولي الوحيد والمحظوظ بين العرب والإسبان سيسهم في استعادة تشكيل هذا التاريخ، الذي شكل وجودهما بقصة فريدة من قصص التاريخ الانساني.

فعلي أن أعرف الجوانب المسيطرة منه علينا، والتي لا نكاد نعرف حتى ماذا نسميها. فهما أمة بدون اسم شرعي يوحدها، نتجت عن مد موجة الفتح الاسلامي على شواطئ أوروبا. مشكلين كما يبدو امتداداً فريداً من جبل طارق حتى «البيرينة»، سريعاً وقوياً يشبه ذاك الامتداد الذي شكله العرب في سورية ومصر قبل ذلك. وأكثر من ذلك تجد آثار بصماتهم في سهول «تولوز» في فرنسا، وكل أوروبا، التي كانت معرضة لاجتياحهم المماثل للشرق. فقد كان من الممكن للهلال أن يتألق على صواري «باريس» و«لندن».

لكن ارتدادهم عند حدود «البيرينة» دفع بذاك الخليط من الأفارقة والعرب، الذين شكلوا تلك الامبراطورية العظيمة، إلى ترك المبدأ الاسلامي في الفتح، ليعملوا على توطيد أقدامهم في اسبانيا فقط، وهم كفاتحين كافأت بطولاتهم عدم تعصبهم فتضافر هذان العاملان مع الزمن على تشكيل أمة فريدة في مكان تواجدهم في الأرض التي افترضوا أن الله قد أعطاها لهم، لذلك أرادوا أن يزودوها بكل ما يمكن أن يرفد سعادة الانسان فيها. فساعدوا كل علم وفن، مما حسن الزراعة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصناعة والتجـارة. ومكـن مـن تأسـيس امبراطوريـة لا تضـارعهـا أي امبراطوريـة مسيحية. جاذبين إلى فلكهم كل عظمة وإتقان الحضارة العربيـة في المشـرق. لذلـك كانوا في أوج عظمتهم الحضارية النور الشرقي الذي اهتدت به ظلمات أوروبا.

ولهذا كانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي المسيحي لتعلـم كـل الفنون، فجامعات «طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة» كانت مقصـد الطـلاب مـن الغرب ممن أرادوا تعلم العلم من العرب، ليستخرجوا من ذاك الكنز الذهبي العتيق رغادة العيش بالعلم. ومن مراكز «قرطبة» و«غرناطة» الـتي انبثقـت منهـا الموسـيقى والشعر، تعـرف محـاربو الشـمال أيضـاً كيفيـة الاسـتعمال الأمثـل لزخـم واندفـاع الفروسية.

فقد ظلت الآثار الاسلامية في اسبانيا كـالجوامع في قرطبـة والكـزار(12) في اشبيلية، والحمرا في غرناطة تشهد على تأثر الغرب بكل ما كتب فيها. كما ظلت الأرض لهم على مر القرون مدة تفوق مدة دخول «النورمانديين» إلى «انكلترا». لذلك لم يتوقع المنحدرون من «موسى بن نصير» و«طارق بن زياد» أن يطـردوا إلى المنفـى بنفس الاتجاه الذي جاء منه أجدادهم، تماماً كمـا لم يكـن يتوقـع المنحـدرون مـن «رولو» و«وليم» وأمثالهم أن يطردوا إلى شواطئ «النور ماندي» مرة ثانية.

وعلى الرغم من كل ما حصل، وبكل الأحوال ظلـت الحضـارة الاسـلامية في اسبانيا، شعاعاً مشرقاً، وومضة لم تجذر في الأرض الـتي طورتهـا. بسـبب عوائـق الدين التي أحاطها بها جيرانها، وهـي المفصولـة عـن مثيلاتهـا في الشـرق بعـائق البحر. وبذلك صار مراكشيو اسبانيا شعباً معزولاً. فصار كل وجودهـم يعتمـد علـى صراع فكري، وفروسي فريد، من أجل ترسيخ القدم بأرض رجراجة.

لقد كانوا ثغراً اسلامياً بمعنى الكلمـة. وأرضهـم سـاحة حـرب مسـتمرة بـين الفاتحين «الغوط» من الشمال، والمسلمين من الشرق. حيث كان اللقاء بينهـم دومـاً من أجل تحديد مـن تكـون لـه السـيطرة فدائمـاً كـانت ترتـد الشـجاعة النـاريـة للعرب، بالاحتياطات المتأنية «للغوط».

ونتيجة ذلك كان المراكشيون الإسبان، أكثر الشعوب غربة وشـعوراً بالشـقاء. واليوم إن أنت سألت: أين هم الآن ؟ يجبـك شـاطئ المغـرب في المنفـى وهنـاك لم

---

(12) ـ القصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقوموا بأي تأثير يذكر بعد نفيهم، إذ كفوا عن التواجد كأمة ذات معالم. ولم يتركوا ولا أي اسم محدد خلفهم. رغم أنهم كانوا شعباً تشكل بثمانية قرون يختلف عن كل شعوب المغرب العربي. وهكذا رفض المغرب العربي حيث منفاهم وجودهم كما رفضتهم بلادهم التي كانوا فيها؟ لقد رفض الجميع اعتبارهم إلا كغزاة أو لاجئين؟ ولذلك لم يبق لهم أي أثر إلا على صخور الحمرا، وبعض الآثار الشاهدة على عظمتهم وسيطرتهم كرمز اسلامي في قلب الأرض المسيحية. والدليل الذي لدينا الآن على هؤلاء الشجعان الأذكياء المتألقين من ذاك الشعب العظيم، هو: الحمرا، هذا القصر الشرقي بقلب العمارة «الغوطية». لشعب غزا وفتح وحكم وازدهر ثم غاب عن الوجود(13) .

---

(13) :عن نفح الطيب، عن الحلل السندسية، لشكيب آرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت عام؟، مج 1،ص 450 . قال شاعر أندلسي مجهول:

عظيم أن يكون الناس طُراً بأندلس قتيلا أو أسيرا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المكتبة اليسوعية

دفعني انخراطي في هذا الهاجس إلى استطلاع كل شيء عن هؤلاء الأفراد، الذين تركوا وراءهم هذا الأثر التاريخي الشرقي الرائع. والذين لا زالت أسماؤهم تزين جدرانه. ولهذا قررت النزول من عالم الحلم والقصص الشاعرية، إلى المكتبة اليسوعية في الجامعة، وهناك بدأت أبحث بين أكداس الكتب المغبرة. وهذه المكتبة بالرغم من أن أعمالها النادرة تعرضت إلى السرقة من قبل الإفرنسيين، عندما كانت لهم السيادة على غرناطة، إلا أنه بقي مع الآباء اليسوعيين الكثير منها، ولم يجرؤ الإفرنسيون على مسهم أو مسها. وفي ضمنها الكثير من الآثار الأدبية الإسبانية. وعدد من المقالات المخطوطة الملفوفة، التي كان لي اهتمامٌ خاصٌ باختراقها.

ولأنني أئتمنت على مفاتيح الأبواب في هذه المكتبة، وتركت وحدي دون أي إزعاج، قضيت ساعات طويلة هادئة في هذه المكتبة القديمة كما أشاء بعزلة نادرة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما لو كنت فيها بدير، أو كما لو كنت تلميذاً عطشاً للمعرفة إزاء منبع من المعارف.

وقد كشفت النقاب عن الكثير من الحقائق التاريخية، خلال زياراتي هذه، وعن شخصيات تاريخة تتصل بالحمرا، سأعرض بعضها على القارىء، عسى أن يلاقي منه قبولاً:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤسس الحمرا

لأن العرب كانوا يعتبرون «الحمرا» معجزة فنية. ظهر في تقاليدهم ما يشير إلى أن مؤسسها كان يتعاطى سحراً كانوا يسمونه: «الكمي» أو ــ السيمياء ــ وبه استطاع أن يحول كماً هائلاً من المعادن الرخيصة إلى ذهب، أنفقه على بنائها؟ ويعرف هذا الرجل في التاريخ العربي باسم: «محمد بن الأحمر». ويكتب اسمه عادة «الأحمر». وقد أعطي له هذا الاسم بسبب لون بشرته الحمراء.

وهو ينحدر من نبلاء بني نصر، أو قبيلة «بني نصر». ولد في «أرغونا» في السنة الهجرية 592هـ الموافقة 1190م. وقد طالع المنجمون برجه، حسب التقليد الشرقي، فاعتبروه في فلك عال جداً، ولذلك تنبؤوا له بمستقبل ماجد. فلم يُبْخَل عليه بأي إنفاق تربوي كي يلاقي هذا المستقبل. وهو قبل أن يبلغ طور الرجولة، كانت «حرب السهول» في «تولوسا» قد دمرت الإمبراطورية العربية في اسبانيا، وفصلت مسلمي إسبانيا عن مسلمي أفريقيا. ونتيجة ذلك ظهر عند الأندلسيين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زعماء طوائف يطمحون إلى الاستقلال في الجزيرة. وانخرطت غرناطة بهذه الحروب، وكان صاحبنا قائداً من قواد بني نصر فيها. وهو في تعارض مع طموحات «ابن هود» ذي التجهيزات الحربية القوية في شعاب جبال «البقصارا» المنيعة. والذي أعلن نفسه ملكاً على «ملقا» و«غرناطة» بعد عدة صراعات خاضها مع ملوك الطوائف التي كانت تحكمها، فخضعت الحمرا له، وأعلن بعد ذلك أنه خليفة على كل الأندلس. وكان رجلاً ذا نفس طموحة وكريمة، فما يناله بيد ينفقه بأخرى. وبعد وفاة «ابن هود» هذا عام 1238م. أعلن ابن الأحمر نفسه وصياً على كل أملاكه. ودخل غرناطة رسمياً بنفس السنة، مع هتاف الجماهير، التي اعتبرته أعظم موحد لتلك الانقسامات الملكية، التي تهدد بجعل الامبراطورية تحت رحمة أمراء النصارى.

ومن يومها جعل ابن الأحمر غرناطة قاعدة ملكه. فكان أول من شكل سلالة بني نصر فيها. واضعاً كل الاحتياطات التي تجعل من مدينته معقلاً، ضد كل الهجمات على مملكته الصغيرة، المحاطة بجيرانه النصارى الذين يمدون ويقوون حدودهم باتجاه عاصمته. وشكل جيشاً نظامياً لحماية معقله، لأنه لم يكن مقتنعاً بالقانون التقليدي القائل: بأن كل مسلم جندي. وكافأ جنوده بثغر لكل واحد منهم على الحدود. كأجر لهم، مما مكنه من تقوية الدفاع عن أرض يملكها جنود. وقد أثبتت الأحداث صحة هذا المنهج. إذ أن النصارى كانوا ينتظرون فرص خلو الأرض بسبب حروب الطوائف، فيستعيدونها مباشرة وبسرعة. وهذا ما فعله «جيمس الفاتح» حين أخضع كل «فالنسيا»، و«فردناند القدس» حين أخضع قبل «جين» معظم ملحقات «غرناطة»، فاصطدم مع «ابن الأحمر» بساحات حرب اضطرت الأخير إلى العودة للاعتصام بغرناطة، فحُصِر العرب بهذا الجيب، بسبب مقاومة «جين»، بينما عمد «فردناند» إلى عدم مهاجمتهم حتى يجد في نفسه القوة الكافية لتدمير معقلهم هذا. مما بدا واضحاً «لابن الأحمر» أن سقوط مدينته صار وشيكاً، إذا هي حوصرت. وأدرك عدم فائدة حلفه مع «قشتالة» البعيدة، فاتخذ مبادرة سلام مفاجئة، حين ذهب إلى المعسكر المسيحي وبرز بدون توقع أمام الملك «فردناند». وبعد أن عرف عن نفسه بأنه ملك غرناطة، قال: لثقتي بحسن إيمانك جئت لأضع نفسي تحت حمايتك؟ خذ كل ما أملك واقبلني مولى لك؟ ثم انحنى وقبل يد الملك بطريقة أنيقة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذه الثقة ربح «ابن الأحمر» «فردناند» الذي كافأه عدوه السابق، بأن رفعه عن الأرض، وقبله كصديق، رافضاً ملكه. وتاركاً له هذا الاقطاع، مقابل جزية سنوية، يدفعها كغيرة من النبلاء في امبراطوريته. شرط تزويد جيش «فردناند» بعدد من الجنود في حال أي حرب مع أعدائه؟ ثم أعطاه مقابل ذلك لقب فارس وألبسه خلعة ودروع الفروسية بيده.

ولم يمض وقت طويل حتى دعا ابنَ الأحمر ليؤدي واجبه القتالي معه، ويدعمه ــ هذه المرة ــ في حصار «اشبيلية» الشهير. وهكذا ظهر هذا الملك العربي مع خيرة من فرسان غرناطة المشهورين باستعمال الحراب الطويلة، ليشهروا حرابهم وسيوفهم هذه المرة ضد إخوانهم عرب «اشبيلية» إخوانهم بالايمان؟

وشكلت مشاركة ابن الأحمر في هذا الفتح، عبئاً كبيراً على نفسه، لكنه ظل على عهد الفروسية مع فردناند. وعاد إلى إقطاعه حزيناً عندما استسلمت «اشبيلية» المدينة العربية الشهيرة عام 1248م لملك قشتالة المسيحي. يردد عبارات كانت تصدر منه وقت حزنه وهي:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟

لكنه دخل غرناطة دخول المنتصر من فتح فتحه. فخرج الغوغاء والعوام للترحاب به، خاصة وأنه كان محبوباً من الجميع. وحيثما سار كانوا يحيونه بعبارة: الغالب؟ .

لكن المسلمين في الحمرا كانوا يعرفون شعارهم الأساسي: شعار الأندلس ككل: «لا غالب لكم إلا الله». وهو ما رفعه كي يخفف من غلواء عوامه. فظل شعاراً أساسياً لكل خلفائه من بعده. وهو موضوع إلى الآن في قاعات الحمرا.

إلا أن ابن الاحمر كان يعرف أن خضوعه للنصارى، لن يجعلهم يقبلون به مدة طويلة، بسبب ذاك العداء المديد والراسخ بين الفئتين، لذلك عمل بالمثل القديم: «اشتر ثياب الشتاء في الصيف، وتسلح في وقت السلم».ولهذا زاد من تحصين قلاع ملكه، وقوى دفاعاته، وأغدق على كل علم وفن يزيد من قوته. وولى على مدنه رجالاً صالحين يقبل بهم الشعب، ونظم الشرطة، ووضع قوانين صارمة لحماية العدل. وكان يجلس بنفسه للقضاء بين الناس، دون أن يبخس حق فقير أو مظلوم. كذلك بنى «التكايا» لغير القادرين على العمل، و«المارستان» للعميان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكبار السن. وأشرف على كل هذا بنفسه، معطياً لكل شيء وقته وحقه ونظامه. لدرجة أنه كان يتعرف بنفسه على كيفية علاج المرضى، ويحقق في أي سوء طبابة يتلقونها. وأوجد المعاهد والجامعات وأشرف عليها بنفسه.

واهتم أيضاً بتوجيه الدراسة فيها، وزيارتها بين فينة وأخرى. وبنى المسالخ والأفران العامة، ليضبط أسعار الغذاء. وهو الذي جر الماء إلى المدينة، لدورها وحماماتها وبركها، فشكل نظام سقاية زاد من سعة خضار الوادي ككل. وهكذا ازدهرت المدينة وزاد جمالها بهاءً. مما جعل التجار يطرقون أبوابها، فامتلأت بكل السلع من كل مكان في البلاد.

كذلك أعطى امتيازات للحرفيين، وعمل على تحسين سلالات الخيول وباقي الحيوانات، ودعم الزراعة وحتى المزارعين، مما جعل هذا الوادي الخصب في مملكته حديقة غناء. فازدهرت صناعة وزراعة الحرير لدرجة تفوق بها حرير غرناطة على الحرير السوري بجودة صناعته. والأهم من كل هذا أنه استخرج مناجمَ للذهب والفضة والمعادن التي وجدت في المناطق الجبلية التابعة له. فَصَنَعَ هذه المعادن، وكان أول مَنْ يصك العملة باسمه، من ملوك غرناطة بصناعة نقدية متقنة.

وهو لم يبدأ ببناء قصر الحمرا إلا بعد عودته من «إشبيلا»، منتصف القرن الثالث عشر. وأشرف على بنائها بنفسه، موجهاً العمال والفنانين فيها.

ورغم كل هذه الصفات الرائعة العظيمة فيه، كان متواضعاً، معتدلاً في نزواته، فثيابه أنيقة، لكنها لا تمتاز عن ثياب رعيته، وحريمه جميلات لكنهن قليلات، ولا يزورهن إلا قليلاً رغم تمتعهن بكل الإمكانات. وكانت زوجاته من بنات نبلائه، يعاملهن كصديقات ورفاق حياة عاقلات. وهن مع بعضهن بالمقابل يعشن بصداقة. وكان يقضي كثيراً من وقته في حدائق قصره، في الحمرا. حيث زود هذه الحدائق بأندر النباتات، وبأجمل عبق الزهور. وهو يقرأ التاريخ. أو يستمع لقارىء يقرؤه له، ويشرف على تثقيف أولاده الثلاثة، الذين يقوم على تدريسهم أفضل المعلمين أيضاً.

وقد ظل على ولائه لفردناند يؤدي له الجزية التي فرضها على نفسه، كدليل صداقة. وعندما مات «فردناند» في «اشبيلية» عام 1254م، أرسل سفراءه مع مائة فارس عربي إلى وريثه «الونزو العاشر» وواكبوا الجنازة برتبهم المختلفة الرفيعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشاراتهم. وكرر هذا الأمر بموت الملك «فردناند آل سانتر» الذي سار معه من الكاتدرائية إلى مرقده، مائة فارس عربي برماحهم الطويلة.

وعمر ابن الأحمر إلى أن بلغ السابعة والتسعين عاماً، ومات عام 1272م. وحادث موته كان إثر خروجه لرد غزوة عن مملكته بصحبة فرسانه، فكسر أحدهم رمحه الطويلة وهو يخرج من باب الحصن، ولأن ذلك كان يعد نذير شؤم، عاد الملك متطيراً ليقع فوراً بالمرض، ولم يعد يقوى على ركوب الخيل. ورغم إخراجه إلى الوادي، زاد مرضه دون أن يعرف الأطباء سبب ذلك أو علاجه. ومات بعد عدة ساعات وهو يتقيأ الدم بشكل عنيف. وكان بجانبه الأمير القشتالي «دون فيليب» أخو «آلونزو العاشر» عندما لفظ أنفاسه. فكفن ووضع بتابوت فضي، ودفن تحت قبر رخامي في الحمرا، مشيعاً بصرخات شعبه الذي ودعه كمن يفقد أباً.

هذا المؤسس الأول لملك بني نصر في إسبانيا، كان مؤسس آخر مملكة عظيمة من ممالك المسلمين القوية الرائعة في الجزيرة «الإيبيرية» أيضاً. والتي بلغت بصيتها أقصى الممالك، وبعظمتها أقصى هيبة. ولأن خزائنها كانت مليئة دوماً، كانت الشائعات بأن ملكها يتعاطى «السيمياء» والسحر، وأنه كان يعرف سر تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. أما الذين كانوا يعرفون طبيعة ذاك السحر والسيمياء البسيطة في سياسته ومنهجه الحكيم الذي نهجه في حكمه، فهم الذين يعرفون بسهولة السبب الذي جعل خزائنه مليئة دوماً بالذهب !! من الحكمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي أنهى بناء الحمرا

يوسف أبو الحجاج

سأضيف لمحة موجزة عن الملك الذي أنهى بناء الحمرا: «يوسف أبو الحجيج» ـ ابو الحجاج ـ أو كما يكتب اسمه أحياناً: «هاكسس». إضافة إلى ذكر الأمراء الذين حكموا هذا المكان.

وهو واحد من نبلاء آل نصر. استلم تاج غرناطة عام «1333م». ووصفه المؤرخون المسلمون بأنه: كان نبيلاً قوي البنية، أشقر الملامح، ذا حضورٍ مهيب، ولحية طويلة يصبغها باللون الأسود. رقيقاً مرهف الإحساس، ومتمدناً إلى أبعد الحدود. ويحمل صفاته هذه معه إلى كل الحروب، مانعاً كل قسوة وتعدٍ فيها. فكان يحمي الأطفال والنساء العجزة من مصائبها، كما كان يحمي رجال الدين المسيحي حين كان يهزم جيوشهم. وكان شجاعاً ذا نفس عالية، وعبقري سلم أكثر منه عبقري حرب. فرغم اضطراره لها كان لا يحالفه الحظ فيها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومبادرته بالتحالف مع ملك مراكش، لم يكتب له الحظ فيها ضد ملك قشتالة والبرتغال. فهزم في المعركة الشهيرة «سلادور» التي شكلت ما يشبه الضربة القاضية للنفوذ الاسلامي في اسبانيا.

وبعد هزيمته حصل «يوسف» على هدنة طويلة، أظهرت شخصيته الفذة في السلم. فقد كان موسوعة علم وثقافة، ذا ذاكرة فائقة، ورهافة شعور، مما مكنه من أن يكون أفضل شاعر في عصره. وهو الذي كرس نفسه لرفع معنويات شعبه وسلوكهم، فأسس المدارس في كل قرية، على منهج موحد بسيط، منقياً المشاعر الدينية من البدع. والأعياد والاحتفالات منها أيضاً. ضابطاً سياسة المدن بتكثيف دوريات الحرس فيها. كما كان يشرف بنفسه على الشؤون المدنية، موجهاً جل اهتمامه إلى إكمال فن العمارة الذي بدأه أسلافه، وهو يوجه الكل للأخذ بخططه. وقد كانت الحمرا التي بناها وأوجدها الفاضل ابن الأحمر هدفاً من أهدافه الأساسية، فتوجه كلية لإنهائها. ولهذا أسس باب العدالة كمدخل رئيسي للحصن الذي أنهاه عام 1348م. كما أنهى بناء الكثير من قاعات القصر، ويمكن رؤية ذلك على النقوش الجدارية الكثيرة فيه، حيث يتكرر اسمه عليها.

كذلك بنى قلعة ـ مالقا ـ «مالاغا» الرائعة في «الكزار» ـ القصر ـ وهي اليوم ولسوء الحظ كتلة من الخراب. لكن الذي كان فيها يشبه ما في الحمرا، روعة وبناء وعمارة.

هكذا ترك بصمات عبقرية على ما بقي من زمن العرب هناك، فغرناطة الشريفة التي ملئت بالقصور المشرفة، المرصوفة قاعاتها بالموزاييك وسقوفها وجدرانها بالأرابسك، المدهون بدقة بالأزور وغيره من الألوان المشرقة. والمدعمة بالأرز وباقي الخشب النفيس، وغيره من المواد التي نجت من تقلبات الزمن عبر العصور، عكست كلها ذوق «يوسف». كما عكست ذاك الفن الراقي الرفيع لشعب راق ورفيع. فقد كان للكثير من البيوت فسقياتها، وبركها التي تقذف الماء في الهوّاء لإنعاش المكان، ولها ايضاً أبراج. من الخشب أو الأحجار المحفورة بدقة والمزخرفة، أو المغطاة بصفائح المعدن المتألق في أشعة الشمس. فإذا استخدمنا عبارات الكتاب العرب عن غرناطة قلنا: «لقد كانت غرناطة في أيام يوسف إبريقاً من الفضة المملوء زمرداً».

ويكفي ذكر واقعة واحدة لإظهار عظمة هذا الأمير الكريم. فقد أدت الهدنة الطويلة التي أعقبت معركة «سلادو»، والتي باءت كل جهود «يوسف» بالفشل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتجديدها، مع عدوه المميت «الفونسو الحادي عشر» صاحب «قشتالة»، أدت إلى حصار جبل طارق. ودون جدوى حاول يوسف مراراً رفع هذا الحصار. وفي غمرة هذا التوتر، تلقى نبأ بأن خصمه المميت قد وقع ضحية الطاعون؟ وبدل أن ينتهز هذه الفرصة، يعيدنا يوسف إلى ماضي العرب المشرق في مثل هذه الظروف حين يحزن عليه ويقول: «إن العالم قد خسر أحسن أمرائه»، فهو رجل يعرف كيف يقدر الامتيازات بأصدقائه وأعدائه.

والمؤرخون الإسبان الذين شهدوا على هذا القول، أكدوا أن فرسان العرب، ولتأثرهم بقول أميرهم هذا، أعلنوا الحداد على موت «ألفونسو». ولم يقم أي منهم من الذين كانوا قرب جبل طارق المحاصر بأي عمل عدائي ضد المسيحيين أثناء الحداد. وخاصة حين انقسم معسكرهم وانسحب الجيش حاملاً جثة «الفونسو» على مرأى من الفرسان العرب الذين لم يتحركوا حداداً عليه. والواقع أن هذا ما حصل على كل الحدود، وما فعله القادة كافة، كما رصد ذلك المؤرخون، فمرت الجنازة بأمن وسلام بالنعش من جبل طارق إلى إشبيليا.

ولم تمتد الحياة «بيوسف» كثيراً بعد عدوه الذي عامله بمنتهى الكرم، ففي عام 1354م، بينما كان يصلي في مسجد الحمرا اغتاله مجرم متمسحن متعصب، حين طعنه بسكين في جنبه، فاندفع حرسه وبطانته لمساعدته، فوجدوه مكللاً بدمائه، ويحاول أن يقول شيئاً: لكن كلماته لم تكن مفهومة، فحملوه إلى جناحه في القصر حيث توفي فوراً. فغضب الجمهور وقطع القاتل قطعاً ثم أحرقه.

أما جسد الملك فقد دفن في قبر رخامي أبيض، كتبت عليه آيات بالذهب والآزور، تذكر فضائله وتقول: «هنا يرقد الملك المجاهد الشهيد، النسيب العالم، الرفيع الفاضل، المحيي لسنن آبائه وفضائلهم. وأياديه البيضاء التي تنعم بفضلها مملكة غرناطة، تدل على أمير عظيم، وقائد مرموق، وسيف من سيوف الاسلام الماضية. وواحدٍ من أفضل السلالات الملكية».

والمسجد الذي شهد مصرع «يوسف» لا زال باقياً، لكن النصب الذي وضع لتخليد فضائله، أزيل منذ زمن بعيد. بينما لا زال على كل حال اسمه يدل على عظمته على جدران قصر الحمرا، ليدل بدوره عبر الزمان على مدى صلة هذا النصب الضخم به، معبراً بفخر عن جمال مبهج خالد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغرفة الغامضة

في إحدى قاعات القصر باب بعيد ، لفت انتباهي له التحف الفنية التي تحيط به، وتحفّه من كل جانب. فهو حتماً وكما يبدو متصل بمكان ما في الحمرا لم أكتشفه بعد. لذلك حاولت فتحه فوجدته مقفولاً، وحين قرعت عليه لم يجب أحدٌ، وبدا صدى قرعاتي ترددها قاعة خاوية. فكيف عليّ أن أدخل هذا الجزء السري المغلق عن عيون الناس ؟! الذي تراءى لي فيه سر جناح مسكون ؟! فهل عليّ أن أحضر في المساء سيفي ومصباحي كما يفعل من تحكي عنهم القصص الرومانطيقية ؟! أم أستدرج فلاح الحديقة الثرثار ليبوح لي بهذا السر؟! أم دولوريس، أو ماتيو الثرثار؟! أم يجب أن أذهب إلى العمة أنطونيا وأطلب منها بصراحة لتميط لي هذا اللثام؟! فطبعاً اخترت هذا كأبسط الأفكار وأقلها رومانطيقية. وحين رحبت بفتح الباب، وأعطتني المفتاح، دهشت لأني وجدت أن ليس هناك سر «ولاما يحزنون»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعدت إلى الباب والمفتاح بيدي ، وفتحته لأجد أمامي غرفة فارغة. تختلف عن بقية القصر، إذ رغم غزارة الفن المعماري فيها وقدَمه إلا أنه فن أوروبي ولا شيء عربياً فيه، وقد تآكلت القاعتان الأولى والثانية، وكذلك سقفهما المبني من خشب الأرز المقطع بعدة أماكن، والمحفور عليه الزهور والفواكه المتداخلة برسومات تشبه أقنعة الوجوه.

أما الجدران التي كانت في الماضي مستورة بستائر «الدامسكو» فهي الآن عارية، وتذخر بالأسماء التي تركها عليها زوارها من السياح، بشكل فوضوي. والشبابيك مفتوحة ومتروكة للرياح لتلعب بها. وهي تطل على حديقة منعزلة، فيها نافورة ماء جار تتدفق ببركة محاطة بالزهور، وتطوقها أشجار الليمون والبرتقال التي تدخل بعض أغصانها من هذه النوافذ. وخلف هذه القاعة، صالونان أطول منها وأقل تآكلاً، يشرفان على نفس الحديقة، زين سقف كل منهما بوسطه بسلة من الفواكه المنحوتة والزهور المحفورة بالسقف، والمدهونة بشكل سيء لتشكل منظراً غير مستحب. أما الجدران فمدهونة ومزخرفة على الطراز الإيطالي. ويكاد دهانها أن يختفي كلية. وشبابيك هذه القاعة على نفس حال تآكل شبابيك سابقاتها. وتنتهي هذه القاعة بمتحف ـ «غاليري» مفتوح على دربزين يمتد بزاوية يمنى على الجهة الأخرى من الحديقة. وقد أيقظ بي هذا الجناح الأنيق ككل، والمزخرف جداً، والمتاز بعناية ليطل على حديقة معزولة والمختلف بفن عمارته عن جاراته من الأجنحة الأخرى في هذا القصر، أيقظ بي حب استطلاع تاريخه. وبعد تقص عرفت أنه من صنع فنان إيطالي في بداية القرن الماضي ـ الثامن عشر ـ أيام «فيليب الخامس» وزوجته الثانية «اليزابيت الفرنسية» ، إبنة دوق «بارما» التي كرست هذه الشقة لها ولحاشيتها، عندما كان من المتوقع وصولها إلى الحمرا. وخصصت للملكة أكثر غرف النوم راحة، والتي تصل اليها من داخل هذا الجناح بدرج، هو الآن مغلق، ويقود إلى غرفة سلطان عربي متصلة بشقة حريمه. التي أعيد تأثيثها كي تصبح ملائمة لنوم «آل ميزابيث» الشقراء، وعليها اسم لازال بارزاً وهو: مكان زينة الملكة «تواليت»

وأحد شبابيك هذه الشقة يشرف على المنظر العام للقصر وخارجه، والآخر على الحديقة سالفة الذكر، وذات الطابع العربي الأصيل. وذات التاريخ الخاص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها أيضاً. فقد كانت هذه الحديقة حديقة «ليندا رقصا» التي يذكر اسمها كثيراً على جداريات الحمرا. فمن هي «ليندا رقصا» هذه وماذا كانت؟!

هذا ما لم يوضحه لي أحد، لكن بعض البحوث التي قمت بها، مكنتني من أن أعرف بعض الأشياء عنها. فقد كانت غانية جميلة معروفة في عصر وقصر السلطان «محمد الأعسر» وهي ابنة تابعه المطيع «الآلسيد» ـ سيد ـ ملقا، الذي آوى السلطان في مدينته حين طرد من العرش ، وعندما استعاد ملكه كافأه على إخلاصه، فكان لإبنته جناحها الخاص في الحمرا، وبه زوجها إلى الأمير «نصر» الشاب المنحدر من سلالة «ابن هود» العادل. واحتفل بزواجها في القصر الملكي في الحمرا حسب عادة تزويج الأسياد في القصر الملكي، حيث تخصص لدخلتهم شقق خاصة. وهنا حتماً تم الاحتفال بدخلتهما معاً في هذه الغرفة.

لقد انقضت اربعة قرون على موت «ليندارقصا» ولم يبق إلا ظلال الجمال الهش للمكان الذي شغلته!! لكن الحديقة لازالت تزهر كما كانت، ولازالت البحيرة تغدق بالماء كالمرآة التي عكست في يوم من الأيام سحر ــ ليندا ــ الفاتن. لكن المكان فقد نضارته، فامتلأت «جرون» الحمام بالطحالب، وعشعشت به السحالي. ففي المشهد ككل، تداعٍ يدل على عرضية الإنسان مع كل ما يتركه من صنعة.

كذلك طوت هذه الجدران فخر ونضارة وأناقة «أليزابيث» وانعكس كل هذا عليَّ بلمسة سحرٍ، كأني اقف أمامهما، وبحضورهما الرائع، وهما تتألقان وتؤلقان روعة القصر.

لكن كل شيء عاد عادياً، عندما عدت إلى مخدعي في شقة الحاكم. بعد أن تركت ذاك القسم الشاعري. وتداعت علي الأفكار: فما المانع أن أغير مكان إقامتي إلى تلك القاعات؟! التي بها وحدها يمكن القول: إنني أعيش في الحمرا، محاطاً بحدائقها ونوافيرها، تماماً كما في أيام العرب بذروتها. وعرضت الأمر على العمة أنطونيا وعائلتها، فأبدوا الاستغراب؟! إذ كيف يمكن لأي شخص عاقل أن يختار جناحاً منعزلاً موحشاً ومنفرداً؟! وتساءلت «دولوريس» عن أي شيء يمكن أن يوجد هناك سوى البوم والوطواط، والثعالب التي ترتع مع القطط الوحشية في تلك الحمامات، وتجول وتصول في الليل؟! وكان للطيبة «تيا» اعتراضٌ أكثر منطقية، فبجوار هذا المكان على الهضاب يتجول الشذاذ من الغجر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقصر خرب، ومن السهل دخوله من كل مكان. وبمجرد أن يشاع أن فيه غريباً وحيداً، في شقة قصية متهدمة، بعيداً عن سمع الباقين من سكانه، قد يغري ذلك بزوار غير مرغوب بهم ليلاً. إذ من المفروض أن الغرباء مليئة جيوبهم بالمال؟! ورغم تأثير ماقاله هؤلاء الطيبون على معنوياتي، بقيت على مزاجي المرح ولم أغير رأيي؟! فأصلح مرافقي الرسمي «ماتيو» بعون أحد النجارين الأبواب والشبابيك

بشكل آمن نسبياً، وهيؤوا غرفة نوم «اليزابيث» لإستقبالي. وتطوع «ماتيو» بالنوم كمرافق حراسة، في غرفة مقابلة. دون أي ميل لي باختبار ولائه هذا.

ومع كل الجهد الذي بذلته، وكل الاحتياطات التي اتخذتها، أعترف بأن الليلة الأولى التي قضيتها هناك، قضيتها بحالة ترقب لايمكن التعبير عنه. والسبب ليس فقط من خوف الخطر الخارجي، بقدر مباهو بسبب هذا المكان الخاص بحد ذاته. مع كل ما رافقه من غرائب في الماضي: فأفعال العنف التي ارتكبت في هذا المكان، والنهايات المحزنة لمن حكموا هنا، كانت عجيبة.

وفيما كنت أجتاز برج التجار باتجاه غرفتي هذه، استدعى عقلي شعراً كان يثيرني زمن الصبا، وفيه:

يجلس القدر العابس في تلك الليالي المعتمة.

وحين يفتح الباب لأدخل.

يتردد صوت الصدى من جدران القصر.

مليئاً بأفعال أناس لامسمى لهم.

وكانت كل العائلة ترافقني إلى غرفتي، كما لو أنني ذاهب لأنخرط في مغامرة. وعندما غابت أصوات أقدامهم وهم عائدون، يردد صداها قاعات «الغاليري» وأقفلت غرفتي علي، تذكرت إحدى قصص المردة، حيث يترك البطل لينجز مهمته وحده في البيت المسكون.

والذي أضاف سحراً للسحر الذي أنا فيه، أفكاري حول «اليزابيث» الشقراء، وجمال مرافقاتها الملكيات، اللواتي شرفن هذا المكان في يوم من الأيام. فهذا المسرح الذي تجلى فيه حسنهن وفرحهن. وهنا الآثار الباقية التي مرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليها متعهن وأناقتهن: ولكن أين كل هـذا؟! أشباح ذكرياتهن فقط! ! والباقي رماد وغبار! ! تراب إلى تراب في قبورهن؟!

لقد كان ينسل نحوي التزام غامض، عللته بأنه من فكرة إمكان وجود لصوص في هذا المكان، التي أثارها حديثنا المسائي السابق، لكنه في الواقع شيء غير حقيقي. قد يعود إلى خرافات قديمة مدفونة في لاشعوري، تعود لتؤكد وجودها عبر خيالي. هذا الخيال الذي راح يؤثر حتى في الأشياء المحيطة بي. فهمس الريح في أشجار الليمون تحت شباكي، صار به شيء ذاتي. وحين حدقت بحديقة «ليندا رقصا» تراءت لي أشباح تتحرك في الظلال. فأغلقت النافذة، لتمتد العدوى إلى غرفتي بذاتها، ففوق رأسي صوت خافت أعقبه انطلاق خفاش من شق من السقف، ليملأ الغرفة حركة أدت إلى إطفاء فانوسي. وهذا الطير الذي كاد أن يلامس وجهي بحركاته السريعة، كان كمن يصرخ في وجهي حقاً.

ولكي أخرج نفسي من هذا الضعف المؤقت الذي سيطر عليها، شجعت ذاتي بأنني إزاء أرواح أبطال تسكن هذا المكان المسكون. فاشعلت مصباحي ثانية وتجولت رغم كل هذا الضغط النفسي، ليحاصرني ضوءه حولي وأنا أتحرك بهذه القاعات الواسعة، ويمتد لمسافة قريبة جداً أمامي، فسرت وكأنني محاط بهالة في ليل حالك غير قابل للاختراق. وراحت المرات كالسراديب مع السقف تومض وتعتم. فعاد لي الشعور بالخطر، وتذكرت كل ما ذكر عن هذه الغرف النائية. فهل يوجد متطفل ما يسير خلفي أو أمامي، في هذا الظلام الحالك الوقب. وبدأ خيالي يزعجني حين راح يتمدد على الجدران، ويوقفني صدى خطواتي عبر المرات لأنظر حولي. وتابعت بممر قادني إلى المسجد الذي كان فيه الملك العربي الذي أنهى بناء «الحمرا» «يوسف»، وبه قتل. وفي مكان آخر، وصلت إلى متحف صالون قتل فيه ملك آخر، من قبل ربيبه ومحل ثقته الذي كان يحبه.

ثم راحت تصل إلى أذني في تلك اللحظة الأصوات الخافتة كقرعات السلاسل الهامسة، من قاعة «ابن سراج». وكنت أعرف أنها من حركة مجاري الماء تحت القاعة. لكنها تبدو الآن غريبة في هذا الليل. فتذكرت القصص التي أنكرتها حول هذا المكان وقد قيلت في وقتها.

وبينما أنا كذلك، وصل إلى أذني صوت أوضح من أن يكون من صنع الخيال، وأنا أجتاز قاعة السفراء، وكأنه أنين لايتقطع يتبع أقدامي. فتوقفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنصت؟! ليبدو وكأنه آت من خارج البرج، ثم اقتحم وأصبح من داخله كما لو كان عواءً لحيوان، فأثر ذلك علي بشكل قوي، فعدت أدراجي إلى غرفتي، مسرعاً، إذ لم يعد لدي أي رغبة بالتقدم . ودخلتها بسرعة أكبر لألتقط أنفاسي فيها، وأقفل الباب.

وحين شع ضوء الصباح من شباكي، وأضاء كل المكان، بشعاعه المبهج، استيقظت وأنا ناس تقريباً أوهام ومخاوف الليلة السابقة. فمن غير المصدق أن المشهد الرائع المحيّط بي الآن، هو نفسه الذي غلل تصوراتي المرعبة في الأمس.

وحينما أكدت لي دولوريوس وجود وحش افترس أخاً لعمتها، عندما كان مرة في قاعة قريبة من قاعة السفراء، وعلى حين غرة. تأكد لي أن الصوت الذي سمعته في الليلة الماضية، لم يكن كله ناجماً عن مثال خيالي.

ومع مرور الأيام تغير المشهد وما يصاحبه من رؤى، فالقمر الذي كان يضيء المكان أول تواجدي فيه. اختفى تدريجياً، فزاد الظلام في الليل. ثم عاد بكامل بهائه فوق الأبراج، ليضيء كل مكان وقاعة ، وحديقة تحت شرفتي. والتفت اشجار الليمون بلطف بضوئه الفضي، وتلألأت النوافير عبر شعاعه الذي يخترقها، لدرجة أنه حتى حمرة الورد صارت مرئية بشكل باهت نوعاً ما.

كذلك صارت اشعار العرب المكتوبة على الجدران بادية أتذوق جمالها، مما جعل جمال هذا المكان كالجنة السماوية، تزينها الحدائق. والورود فيها كالنجوم. ولا يملأ البركة بمائها الكرستالي الذي به تصبح أشبه بالمزهرية، إلا ضوء القمر حين يصير بدراً، وهو يضيء من وسط السماء الصافية، بلا غيوم.

آه ... من هذا المنظر الفردوسي الليلي الذي يجعلني أجلس الساعات في شباكي، لأنهل من أريج حديقته أعذب الهواء، وأفكر بأولئك الذين صنعوا التاريخ عبر ظلالهم المتروكة هنا، في هذا النصب التذكاري الأنيق. فحين تدق ساعة منتصف الليل من كتدرائية غرناطة. يخيم الهدوء، فأبحر في جولة أخرى كل يوم بيّم عجائب هذا المكان. بشكل يختلف كلية في كل مرة عن جولتي الأولى فيه ! ! فلا غموض الظلام أصبح مجهولاً، ولا الظلال مرعبة.كذلك لم أعد أتذكر أي مشهد عنف أو جريمة حصلت هنا. فقد فُتحَ كل شيء أمامي عبر جماله وبهائه، ليستدعي كل التصورات الرومانطيقية المسرة. لتتألق قاعة السباع مرة ثانية وكأن «ليندارقصا» تسير في حدائقها، وفارس غرناطة العربي يحيا في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قاعاتها. فكيف لي أن أجزي القمر فيما يقدمه هنا ويفعله بهذا الجو وهـذا المكـان. مع الطقس المعتدل الرائع لمنتصف ليل الأندلس. والذي يجعلنـا نرتفـع إلى فضـاء أطهر، لنشعر بروحية الروح السماوية التي تعطي الوجود سعادته. وكـأن الحمـرا قد استعادت عظمة طهرها ، بتأثير ضوء القمر الأثر. وبهذا تختفي كل المضايقات وحجب تبدل الطقس، ليعود إلى الرخام بياضه الأصلي، وتنصع جذوع الصفصـاف بلون أشعة القمر. وحين تشرق القاعـات بهـذا الضـوء الخـافت، يسـتعيد القصـر المسكون حكاياه العربية.

وأي بهجة يمكن الحصول عليها في مثل هذا الوقت، أكثر من الـنزول إلى غرف زينة الملكات، الـتي تبـدو كأقفـاص الطيـور فـوق وادي «داره» تتـأمل زهـر الأوركيد الأبيض الذي يزينه. وعلى اليمين يشرئب جبل «سييرانيفادا» ليضيف إلى نعومة ما حوله صلابة قصة خرافية، يكللها برأسه الثلجي كالفضة التي تخترق السماء الزرقاء، ثم لينحني على مرتفعات «التوكادور» ـــ تلـك الـدور ـــ ليحـدق في الأسفل بغرناطة وببركها المنثورة تحته كالخريطة. وحـين ينـام القصـر الأبيـض في شعاع القمر، يختفي الوادي خلف كل هذا الغمام، مثل بلاد الأحلام البعيدة.

ومن «اللاميدا» ـ المدى ـ تسمع أحيانـاً دقـات صنجـات اليـد، مـن مـدى، حيث يرقص أندلسي مرح في ليلة صيفية، أو تسمع أحيانـاً أخـرى نغـم «غيتـار» موقع على ألحان حـب، يحكـي قصـة عاشـق تحـرك بشـعاع القمـر نحـو شـباك حبيبته التي غادرها من زمن.

وكل هذا الوصف غير كافٍ وضحل، لليالي القمرية الـتي قضيتهـا أتجـول في الشرفات والقاعات، والأبهاء، في هذا الأثـر الموحـي الـذي مـلأ تخيلاتـي وغذاهـا بحـلاوة رائعـة ومتعـني بخليـط مـن المشـاعر الـتي سـرقت وجـودي بـذاك الجـو الجنوبي. جاعلة من المساء صباحاً قبل أن أخلد إلى النوم في كل ليلة. يهدهـد لي فيها خرير ماء بركة «ليندا رقصا» كل استغراق حالم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منظر عام من «برج التجار»

اعتليت برج التجار، في صباح يوم جميل مشرق، قبل أن تتمكن الشمس من تدمير شذى الليل المنعش. وأخذت منه منظراً عاماً عن غرناطة وجوارها.

فتعال معي لترافق خطواتي أيها القارىء. مع كل نقلة غنية قبل أن نصل إلى قاعة السفراء. ونحن لن ندخل القاعة، بل سنتجه إلى ذاك الباب الصغير المفتوح في جدارها الجانبي. ونصعد بدرج متعرج لولبي، قليل الإضاءة ، يجلب الإنتباه لخطانا فيه. هذا الدرج الذي سلكه الملوك رغم كل رفعتهم، ليصطحبوا زوجاتهم كي ترى استعراض جيوشهم العائدة من الغزو، أو ليراقبوا بكل جوارح قلوبهم المعارك التي كانت تحدث في الوادي المهمل «فيغا» أمامهم.

وإذا وصلنا إلى السطح لنلتقط أنفاسنا على «تراسه» سنجد أننا إزاء منظر «بانورامي» عام جميل للمدينة والريف حولها. وللجبال الصخرية والسهل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخصب. والآثار المبعثرة بأخاديد تتعشقها. ثم لنقترب من ساحات المعارك حين ننظر فوراً إلى الأسفل. ألا ترى على هذا الجانب كل سهل الحمرا مفتوحاً لناظرنا بحيث نستطيع رؤية قاعاته وحدائقه. وأسفل البرج يمكن رؤية قاعة البركة بخزانها المليء بالسمك، والمسيج بالورود. وخلفه قاعة السباع بنوافيرها الشهيرة ولونها العربي الفاتح. ووسط هذا النصب الضخم، تقبع حديقة «ليندا رقصا» الصغيرة، بمركز القلب من هذا البناء. بكل زهورها وأشجار ليمونها، ولونها الزمردي الأخضر.

هذا الموقع الحربي الذي يلف كل الهضبة بأبراجه المربعة الشكل، هو الجد الخارجي للحصن، يمكنك أن ترى فيه بعض أبراجه المخربة، وقطعاً ضخمة منها تدفنه أشجار التين.

لننظر إلى الجانب الشمالي من البرج، إذ يبدو ارتفاعه شاهقاً جداً، لأنه يقبع على منحدر أساسي فوق التل المنحدر بشدة. ألا ترى الشروخ الطويلة في الجدران الضخمة التي تدل على أن البرج قد تعرض للزلازل التي تهز غرناطة من وقت لآخر. والتي تتضافر مع الزمن على تحطيم هذا الرمز ككل. وتحتنا الوادي الذي ينفتح على سهل «داره» . ألا ترى هذا النهر الصغير كيف يشق طريقه تحت السطح الذي نقف عليه، بين الزهور والأوركيد في الحديقة. لقد كان هذا النهر مشهوراً باحتوائه على الذهب في الزمن الغابر. ولازالت رماله تغربل بين وقت وآخر بحثا عن المعدن الثمين. أما هذه الأرصفة البيضاء التي تزين الممرات وبعض الشرفات، فقد كانت أماكن استراحة يجلس عليها العرب، للتمتع بنضارة الحدائق. والتي شبهها بعض شعرائهم باللؤلؤ المزين لصفيحة من الزمرد[14] .

والقصر الصيفي لملوك العرب، الجيد التهوية، بأبراجه الطويلة ودعائمه التي تبدو كالجبل الذي تطوقه الحدائق، بعيد عن مجال الحمرا الأكثر حراً. ومنه تستطيع أن ترى بعض الخرائب في «سيلاري مورو» الذي كان مجلساً للعرب،

---

(14) : عن الحلل السندسية مرجع سابق مج1 كقول ابن سفر المريني:

أنهارها فضة، والمسك تربتها والخز روضتها والدر حَصباء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين انسحبوا منه أيام «ابو عبد الله» يوم الفتح الإسباني. ليتركوه وحيداً ناحباً ينظر إلى مدينته المتمردة.

وخرير الماء الذي يسمع بين حين وآخر في الوادي من ناعورة عربية قديمة تئن، يقع على أقدام الهضبة تقريبا. ويقود طريق الأشجار وراءه إلى «الميدا» ـ المدى ـ حول شط «داغرو» ـ داره ـ الذي يشكل منتجعاً منفصلاً في المساء لاجتماع العشاق في الليالي الصيفية، ومنه تخرج نغمات « الغيتار» من وقت لآخر. أما الآن، فليس فيه إلا بعض الرهبان وسقاة الماء، الذين يحمل أحدهم جرة ثقيلة مصنوعة من الفخار بطريقة شرقية، مثل التي كان العرب يستخدمونها. وقد ملأها من نبع بارد اسمه «لافلانوس» ـ نبع ابن الأنيس ـــ الذي يتدفق من عين الدمع، من مصيف بالجبل، ذكره الرحالة «ابن بطوطة» حين ذكر قصص الحب عند الأندلسيين وتاريخهم.

ولما كان هذا البرج العالي الذي نحن فيه، أفضل مكان للعقبان، أخافنا صقر يحمي عشه وصغاره فيه، وهو يدور حوله طول النهار. أما في الليل حيث تنام الطيور، فيخرج البوم لينعب على أطلال القصر نائحاً على قتلى المعارك فيه. ويمكنك أن تنظر إلى الصقر الذي أخافنا، كيف هبط تحتنا ليستقر على قمة شجرة هنيهة، أبحر بعدها إلى السهل الأخضر المفتوح!!

أما إذا رفعت عينيك إلى الثلوج التي تكلل الجبل وتضيئه كغيمة صيفية في السماء الزرقاء، فسترى «سييرانيفادا» رمز غرناطة المشرئب، ومصدر هوائها العذب، وينابيعها المتفجرة، ونوافيرها الفوارة، وجداولها المترقرقة. وهذا الصرح الجبلي هو الذي يعطي غرناطة بهجة، نادراً ما توجد في المدن الجنوبية. فالخضار الطازجة، والطقس الشمالي، مع الشمس المشرقة، واللون اللازوردي للسماء الجنوبية، والكنز الثلجي الذي يذوب ببطء مع زيادة حر الصيف فيحرك كل جدول بإتجاه «البقصارا» كل هذا هو الذي يعطي لهذا الوادي خصبه، ويمتد إلى كل وادٍ يليه.

هذه الجبال هي مجد غرناطة، وتسيطر على كل ناحية الأندلس القديمة، ويمكن رؤيتها من كل البلاد الأندلسية، وقممها تطل حتى على أبعد السهول. كما يستطيع كل بحار إسباني أن يلحظ تلك القمم من أبعد نقطة في البحر المتوسط. ليذكر فوراً رقة غرناطة، ويغني لها بصوت خافت أغنية أندلسية عربية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قديمة. وعلى أعتاب هذه السلاسل الجبلية، هضاب تتحرك عليها قوافل البغال ببطء يكمل أثر مشهد التواجد الإسلامي القديم. ومن إحدى هذه الهضاب، ألقى تعيس الحظ «أبو عبد الله» نظرته الأخيرة على غرناطة، وأطلق آخر تنهيدة عليها.

وعلى أحدها الآن توجد بقعة تسمى: آخر ما رآه العرب.

وحين تنحدر الهضاب إلى الوادي «فيغا» تظهر البراري المزهرة المتفتحة بكل حديقة من حدائقها، بأوركيدها و أزهارها، التي تتسع بترابط فني، يخفي فيه جداول لاحصر لها بناها العرب عبر أقنية تؤمن «العدادين» التي توزع الماء بشكل حصص متساوية. هذه هي الأرض التي حارب من أجلها الأندلسيون حتى اليأس، وهي الآن خاوية خربة وعشوائية التنظيم . لكنها تظل تشهد على ذوق جمالي لأناقة سكانها أيام الإسلام. فمن وسط هذه السهوب الجميلة، تظهر قصور قديمة خربة، منها ارتبط العالم القديم بالعالم الحديث بأبراج تلمع في ضوء الشمس، خاصة من مدينة «سانتا في» التي بنيت خلال حصار غرناطة من قبل الكاثوليك بعدالحريق الذي دمر معسكرهم. وضمن أسوارها استدعت الملكة : «كولومبس» واتفقت معه على كشف العالم الجديد. أما خلف هذه المدينة فجسر «بينوس» الذي شهد حرباً دامية بين المسلمين والمسيحيين. وعليه مر رسول كولومبس حاملاً مشروعه في كشف العالم الجديد، إلى البلاط الفرنسي، حين يئس من نجاحه مع السلطة الإسبانية.

أما الحدود القديمة بين غرناطة والمناطق المسيحية، فهي فوق الجسر، في السلاسل الجبلية التي تلتحم بالوادي «فيغا» إلىالغرب. وعلى هضابها لازالت مدن الثغور بجدرانها و معاقلها التي تنسجم مع الصخر الجبلي الذي بنيت منه. فهنا وهناك تجد برجاً وحيداً للمراقبة، كالراهب الذي ينظر من قمة الجبل كمن ينظر من السماء إلىالوادي. وكم مرة أعطت «الآتاليا» ــ مراكز القتال ــ هذه الإشارة بالدخان في النهار أو النار في الليل عن اقتراب العدو! !

وفي شعاب هذه الجبال ممر يسمى «ممر لوبي» منه نزل الجيش المسيحي إلىالوادي الملتف على جبل «الفيرا» الذي تمتد صخوره الكبيرة إلىالسهل الخصب، ومن خلفه ظهرت قوات الغزو بأعلامها وطبولها وزمورها! !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد مضى خمسمئة عام منذ كان «اسماعيل بن فراج» ملك غرناطة العربي في برج أراه أمامي الآن، ليصد غزواً مشابهاً مهيئاً لهذا الوادي. ومن هذا البرج كان ينطلق بفرسانه المتميزين بالفروسية الإسلامية النادرة. التي ذكرها التاريخ، واشتهر بها الأمراء العرب: «حيث كانوا خليطاً من الفضل والكرم الدائم. الذي أورثوه لأعقابهم كي يبقى أبداً في ذاكرة الشعوب»

تعالوا لنجلس على هذا السطح ـ سطح برج التجار ـ لأذكر لكم الأحداث، وأربطها أمامكم.

ففي عام 1319 م تصدى «اسماعيل بن فراج» لغزو مسيحي جاء من «الفيرا» ورده. خلال الفترة التي حكم بها «الفونسو الحادي عشر» وقد جاء هذا الغزو من حاكمي «قشتالة»: «دون جوان» و «دون بدرو» اللذين راحا ينهبان ويسلبان من «القودة» إلى «قالة الرجال» فاحتلا قصر «غيلورا» واشعلا النار في ضواحيها. ثم نقلا تمردهما الثائر هذا إلى أبواب غرناطة وراحا يتحديان ملكها كي ينزل إلى ساحة الحرب.

واعتبر إسماعيل أن هذا التحدي من أمراء مراهقين لا يستأهل قبوله، خاصة وأنه لم يكن تحت يده قوات كافية آن ذاك. فظل ينتظر وصول قواته من أماكن مجاورة. فيئس الأميران المسيحيان من دفعه إلى خارج الأسوار بالتحدي، فقوضا خيمهما وعادا إلى وطنهما. وقاد «دون بدرو» المقدمة «ودون جوان» المؤخرة للجيش العائد، والذي أفسده السبي الذي ربحه، فلم يكن جيشاً منظماً.

أثناء ذلك وصلت التعزيزات للملك «إسماعيل» تحت قيادة «اوسمين» ـ عثمان ـ أحد قادته الأشاوس. فقاطعوا للعدو في الجبال، وفاجؤوهم في الشعاب، فمزقوهم شر ممزق، وطردوا من بقي منهم خارج الحدود. كما قتلوا الأميرين. وتمكن الجنود المسيحيون من حمل جثة «دون بدرو» وضاعت جثة «دون جوان»!! في ظلام الليل. لذلك كتب ابنه إلى الملك العربي يطلب جثة والده الضائعة، لتدفن بما يليق بالملوك. هنا نسي «إسماعيل» عداءه له وكل إهاناته التي سبق وأظهرها على باب مدينته، ولم يفكر به إلا كفارس وأمير. فأمر بالجثة أن تحاط بما يجب من التكريم الفروسي بإحدى قاعات الحمرا. وعين الفارس «عثمان» وعدداً من الفرسان كمرافقة شرف، وجعل الأسرى من جيش النصارى تطوف حولها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم كتب إلى ابن الأمير «دون جـوان» أن يرسـل مرافقـة لاسـترجاع الجثـة، مؤكداً له أنه سيسلمها لهم بأمانة. فجاء فرسانهم لهذه الغاية، وتلقاهم «اسماعيل» بكرم ضيافته. وحين عادوا بالجثة، رافقهم الفرسان المسلمون إلى الحـدود، إكرامـاً للجنازة.

ألا يكفي ما قلناه هذا. لقد ارتفعت الشمس فوق الجبال وسكبت أشعتها على ما نكتب، فصار «التراس» حاراً تحـت أقدامنـا. لذلـك سـنتركه لنـنزل إلى ظـلال الأوركيد حول نوافير قاعة السباع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البريد

إن جميلة الحمرا المشرقة السمات التي تحدثنا عنها «دولوريس»، تتمتع بعاطفة أمومة نسائية تجاه كل الحيوانات الأليفة. ولذلك جعلت من إحدى قاعات الحمرا المهدمة، مكاناً مفضلاً لرعاية هذه الحيوانات. واضعة على عرض هذه القاعة ديكاً بلدياً وحوله دجاجاته، يسانده ديك حبش من أصل نبيل. ومن شرفة هذه القاعة أدخلت حمامتين تستمتع بهما بصورة أساسية. إضافة إلى هرة وصغارها.

وقِنُّ الحمام الذي يشرف على القاعات الملكية بنته دولوريس من أجل رعاية أفضل لهذه المتناقضات المتنافرة في هذه القاعة. مما عزل هذه الحيوانات عن كل شيء خارج القصر، فعاشت متآلفة دون أن تعرف شيئاً عن الخارج. ونتيجة القران المقدس بين الحمامتين وضعتا بيضتين منقطتين، أفرحتا مربيتهما، بشكل لا تعادله أي فرحة مماثلة عندها. وهما من جانبهما تناوبتا الجلوس على البيض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى فقس. وتذهب كلتاهما إلى الملجأ الدافئ في القاعة للرعي وإحضار التموين من هناك.

وهذا الصباح الباكر، بينما كانت دولوريس تطعم ذكر الحمام فتحت له النافذة لتعطيه نظرة على العالم الخارجي، وكان الشباك يطل على وادي «داره». الذي منه انطلق الطير لأول مرة كي يجرب أجنحته خارج سور الحمرا. ثم حط في الوادي، وبعدها ارتفع إلى ما يقارب السحاب، ليختبر متعة الطيران. وهو سعيد بما حصل عليه من هذا المنفذ إلى الحرية التي فتحت له أبوابها فجأة. وهكذا ظل يحلق متعرجاً طوال اليوم، من برج إلى برج، ومن شجرة إلى شجرة. وباءت كل محاولات اعادته برمي الحبوب له على السقف بالفشل. وبدأ وكأنه لم يعد يهتم ببيته، أو بمساعدة رفيقته الرقيقة بحضن صغارها. ولكي يزيد قلق دولوريس اختار رفيق طيران له، من الحمام الذي يسحب الطيور إلى صاحبه «كشاشها». وتبعهما آخر من أولئك الذين يسخرون غريزتهم ولاءً لسيدهم، فشكلا خطراً حقيقياً عليه. خاصة وأن هذا الهارب قد بدا مستمتعاً بصحبتهما، فقاما بتفسيحه وإطلاعه على الحياة، وتعريفه على مجتمعهما. وهكذا راح يتسكع معهما على كل سقف ومنحدر في غرناطة. وأثناء ذلك مرت عاصفة رعدية على المدينة، ثم حل الظلام، ولم يعد الطير. وزيادة في الإشكال، بعد أن ملت رفيقته من حضن الفراخ وحدها، ذهبت لتبحث عنه، فكاد الصغار أن يهلكوا من افتقارهم إلى دفء ملجأ الآباء، ونقص الطعام، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت الأخبار لدولوريس، أن الطير الفار قد شوهد على برج «جنراليف» حيث هناك كشاش حمام يلتقط الحمام الضائع بشباكه، وعنده اثنان أو ثلاثة من أمثال صاحبنا. فاستنتجت دولوريس هلاك طيرها المحتم على هذا البرج. لذلك عقد مجلس حرب في غرفة العمة أنطونيا لأن «جنراليف» يعتبر شرعاً خارج الحمرا، وهناك نوعٌ من الغيرة بين المسؤولين عن كل منهما. وتقرر إرسال «بي بي» الحدائقي الثأثاء فوراً كسفير للمسؤولين إلى هناك. ليؤكد لهم أنه في حال وجود هذا الفار في مقاطعتهم يجب إعادته وتسليمه لأنه من رعايا الحمرا. وعلى هذا الأساس انطلق «بي بي» في مهمته السياسية على ضوء القمر الذي يضيء الشوارع. ثم عاد بعد ساعة بإنكار وجود مثل هذا الطير في شباك «جنراليف». ومع ذلك أخذ منهم عهداً باعتقاله فور ظهوره، حتى ولو كان في منتصف الليل، وإعادته مخفوراً إلى صاحبته، صاحبة العينين الدعجاوين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا عم الحزن والقلق كل القصر، لدرجة أن دولوريس لم تضع رأسها على مخدتها طوال الليل وكما يقول المثل: «مع الصباح تأتي البشائر.. لتزيل الحزن بزوال الليل». كان أول ما تصبحت أنا فيه هذا الصباح هو دولوريس وطيرها بيدها، وعيناها تتألقان فرحاً. فقد ظهر باكراً في مراكز الدفاع في القصر، «يترغل» من سقف إلى سقف، ثم سلم نفسه كأسير، ودخل أخيراً من الشباك، فنال عفواً فورياً بسبب عودته. لذلك وضع الطعام أمامه فوراً، وكأنه ولد مشرد جائع عاد إلى منزله، فيجب أن يطعم ويتلقى كل أنواع التوبيخ مع احتضانه وزفه بالقبلات. ولاحظت أن دولوريس قد عمدت إلى قص أجنحته حتى تتلافى حادثاً آخر في المستقبل. وهو بالمناسبة اقتراح اقترحته أنا أيضاً لكل من عندها عشيق أو زوج زائغ يحب الترحال. وهذا الاقتراح هو العبرة التي يمكن استخراجها من قصة دولوريس وطيرها الفار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرفة

تحدثنا عن الشرفة التي تحت الشباك الذي يتوسط قاعة السفراء، والتي أعدت كمكان مراقبة، لذلك رحت أجلس فيها أحياناً، لأتأمل السماء من فوقي، والأرض من تحتي. إضافة إلى ما تتيحه لي من رؤية الجبال الرائعة، وسهل «الفيغا»، وكل مشاهد الحياة اليومية في المدينة التي يمكن مراقبتها من هذه الشرفة. ففي أعتاب الهضبة مكان عام للتجمع العصري عند المر الرائع للمكان الذي كان يدعى «أكزنيل» والذي شهد غزاة المدينة. وهو الآن مكان نزهة للذين يأتون من الضواحي، إضافة للرهبان و«الفرير»، الذين يتريضون بالمشي بعد الطعام فيه، مع الطبقات الفقيرة بلباسهم الأندلسي، وأحياناً يظهر فيه الخارجون عن القانون ببنادقهم، أو رجال الطبقات العليا يتباحثون بأمور سرية.

فاندفعت لدراسة هذه الصورة المثيرة لشخصية وحياة الإسبان، وكأنني عالم فضاء يجلب بمنظاره المكبر النجوم إلى مكانه ليفحصها. ومع أن معي منظاراً مكبراً ـ مثله ـ وبحجم الجيب، استعملته في مراقبتي ومسح المقاطعة تحتي، فقربت هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجمعات لي قدر المستطاع، لدرجة أنني ومع الوقت صرت قادراً على تقدير حديثهم من علامات وجوههم. وهكذا صرت في وسط المجتمع دون أن أخرج من عزلتي . وهي فرصة نادرة يستطيع بها رجل خجول مثلي، مشاهدة دراما الحياة، دون أن يكون أحد الممثلين فيها.

والريف الذي يملأ الوادي تحت «الحمرا» يمتد إلى التل المقابل للحمرا، تل «البايسين» ـ البائسين. الذي بنيت معظم بيوته على الطريقة العربية. بأرض دار فيها فسقية بركة، تنطلق في السماء المفتوحة لتبرد الدار، وبها يقضي سكانها معظم وقتهم. أو على مصاطب السقف، في أيام الحر في الصيف. دون أن يلاحظوني وأنا أرقبهم من عل، وكأنني أنظر إليهم من غيم الجو.

فتماماً كما في القصة الإسبانية الشهيرة للتلميذ الذي استطاع أن يطلع على كل ما يجري في كل دور «مدريد» التي أصبحت مكشوفة لناظره، وجدت نفسي بنفس الموقع، فكل أمور هؤلاء الناس تحتي أصبحت واضحة. فكل وجه جميل أو مقطب أراه يومياً، أستطيع أن أبني من خلاله قصة درامية. رغم أن بعض شخصياتها قد يتصرف أحياناً بعكس ما رسمته له، مما يغير واقع الدراما ككل. وبينما كنت أراقب بمنظاري المكبر طرقات «البائسين»، لاحظت إجراءات لبس الحجاب التي تحدد مصير شابة صغيرة، تحصل لدفنها حية في الوجود. ومن شدة تعاطفي معها، تصورتها شابة جميلة، لما تؤكده لي وردية خدودها، وتدل على أنها ضحية وليست متطوعة، ثم غطيت بعد ذلك برداء، وكللت بطوق من الزهور بخبث روحي، كان قلبها ضده، وحتماً يهتف بحب واقعي أرضي. وبجانبها رجل طويل حاد القسمات يمشي بتؤدة، فهو حتماً والدها الطاغية، والذي يقوم بهذه الأضحية لدافع مجهول؟ رغماً عن شاب أسمر يلبس عباءة أندلسية، ويبدو أنه يحدجها بنظرات الحزن، فهو لاشك عشيقها السري الذي ستفترق عنه إلى الأبد. ومما زاد من تحفزي، تلك النظرات الشريرة التي يرمقها بها الآباء المعمدون و«الفرير» لحظة وصول الموكب إلى كنيسة الرهبنة، حيث تلمع الشمس آخر مرة على هذه الضحية المسكينة قبل دخولها للكنيسة. وحين توقف عشيقها لبرهة أمام الباب، أحسست بمشاعره التي سيطر عليها، ثم دخل، وصورت نفسي الكثير من التعارضات في الداخل، حيث ستخلع هذه المسكينة، كل أردية الزينة، لتلبس لباس التحول إلى راهبة بجلبابه الواسع. ويأخذ منها القائمون على الكنيسة القسم بعد ذلك، ثم يحلقون شعرها الحريري الناعم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فشعرت وكأنني أسمعها تؤدي هذا القسم الذي لا عودة منه، وهي ساجدة كأن الموت يحيط بها من كل جانب. وهكذا تستمر إجراءات مثل هذه الجنازة، التي تعلنها ميتة بين الأحياء، على نغمات «الآرغن» الجشة، ومتطلبات الراهبات الفظة. ويشاهد والدها كل ذلك، دون أن يدمع له جفن. أما عشيقها فتخيلته بحال لا يمكن وصفه، فظل موقفه معتماً في خيالي.

وبعد ذلك بمدة خرج الموكب، وتوزع الناس بكل وجه للتمتع بأشعة الشمس، ومخالطة كل متع الحياة ومشاهدها، دون أن تعود معهم الضحية المكبلة بلباس العرس الكنسي، فقد أغلق باب الدير بشكل فصلها عن العالم إلى الأبد. ثم رأيت الأب والعشيق في حوار مصارحة على ما يبدو. وكانت إيماءات الأخير حادة. لذلك توقعت نهاية عنيفة لهذه المأساة التي تصورتها. لكن زاوية البناء تدخلت، ومنعتني من متابعة رؤية المشهد، فأعدت نظري بلهفة إلى الدير أرقبه حتى المساء، حيث لاحظت ضوءاً وحيداً يومض من قاعة بعيدة بأحدالأبراج، فقلت لنفسي: هناك تجلس الراهبة التعيسة، لتنتحب في زنزانتها. بينما يزرع عشيقها الطرقات تحتها، جيئة وذهاباً بغضب.

ودخل ماتيو كعادته عليَّ فجأة فقطع أحلامي وتأملاتي. ليطير كل تخيلاتي بما جمعه من حقائق عن المشهد نتيجة طبعه المتلمس. فالبنت لم تكن جميلة ولا شابة، وليس لها عاشقٌ؟! وهي قد دخلت الدير بكل إرادتها. كمؤمنة محترمة. وهي من أسعد الناس المقيمين فيه.

فاستغرقت بعض الوقت، حتى أستطيع أن أغفر لهذا التناقض الخاطئ بكون الراهبات سعيدات في سجنهن. بكل ما فيه من تعارض مع كل قواعد الرومانسية؟!.

وعلى كل حال لابد من تحويل نظري إلى جانب آخر من الأمر والمكان. فرحت أراقب إحدى الجميلات الدعجاوات. وهي تخرج من شرفتها. متشحة بلباس حريري، وتتزين بالورود. وتحمل رسالة من فارس أسمر جميل. يأتي دوماً إلى تحت شباكها. وأراه أحياناً في الصباح الباكر، يسرق النظرات ويتبادلها معها. ثم يربض في الزاوية. ربما بانتظار إشارة منها ليدلف إلى المنزل. وفي الليل أسمع نغمات «غيتار» يصاحبها حركة في الشرفة من زاوية إلى أخرى فيها. لذلك تصورت قصة غرامية، تشبه قصة «ألمافيفا». ولكن مرة ثانية تبينت أن العاشق هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زوج السيدة، وهو من الخارجين عن القانون، وكل الإشارات من أجل تمرير بضائع مهربة؟!.

فلم يعد يمتعني في هذه الشرفة، إلا تغير مشهد المدينة بتغير ساعات النهار فيها:

فالشروق حين يطرد من السماء لونها الرمادي، تعقبه أصوات الديكة عند الفجر، كدلالة على أن الساعات الأولى هامة من نهار هذا الطقس الصيفي، لأنها الأكثر إنعاشاً. لذلك يحرص الكل على بدء نهارهم مع الفجر. فسواس البغال يجهزون قوافلهم للسفر، ويربط المسافرون أمتعتهم على سروجهم ويمتطونها، محملين بالفواكه والخضار الطازجة للرحلة. أما الفلاحون السمر فيعرضون منتجات حقولهم باكراً، فتهرع ربات البيوت لشرائها.

وحين ترتفع الشمس بسماء الوادي لتمتد بأشعتها على كل زاوية فيه، وتدق أجراس الكنائس الهواء، معلنة ساعة الصلاة والطاعة، يوقف سواس البغال بغالهم أمام الكنيسة، تاركين بضاعتهم ليدخلوا وقبعاتهم بأيديهم وهم يمشطون شعرهم الأسود لسماع القداس. والدعاء لمن يهمهم أمره بعيداً عنهم في القرى الجبلية. وضمن كل هذا، لاحظت دخول سيدة بخطوات متئدة ـ إلى الكنيسة التي أراقبها ـ وهي مزينة بشكل جيد، وعلى رأسها غطاء صغير وأنيق، وبيدها مروحة تتحرك، أمام عينين سوداوين مضيئتين، خلف حجابها المسمى: «منتلا» ـ منديلاً ـ. لقد جاءت لتطلب الآخرة بإرضاء الله بصلاة صباحية. لكن فستانها الأنيق، والحذاء اللماع تحته، والموصول بشرابات حريرية؟! والشعر المصفف بأناقة، والوردة الطازجة فيه، مجلبة للأنظار اللماعة، لتدل على ذاك الخلط بين طلب الأرض والسماء داخل مملكة عقلها. لكن الذي يكفل إبعاد الأفكار الأرضية، عمة أو خالة أو أم، تمشي وراءها.

أما عندما يتقدم النهار، فيبدأ العمل بكل مجال، لذلك تزدحم الطرقات بالرجال. والدواب بأحمالها. مما ينتج همهمة تُسْمَعُ كهدير البحر. ولا تخف هذه الهمهمة تدريجياً إلا مع ارتفاع الشمس نحو الظهيرة، ومعها تتوقف، لتهجع المدينة وتتوقف عن العمل عدة ساعات. فتغلق الشبابيك، وتسدل الستائر، وينسحب الناس إلى الأماكن الباردة في بيوتهم. ويبدأ الراهب الذي تناول وجبة دسمة بالشخير في قيلولته. بينما يتمدد الحمال الأسمر بجانب أحماله. وينتبذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلاح ظل شجرة يتفيأ به. ويقيل الفلاحون كلهم على طول سهوب «لاميلا» ـ المدى ـ على هدهدة صرير الصراصير. أما في المدن فتهجر الطرقات، ما عدا السقاة الذين يحملون الماء، وينادون على شرابهم الطهور بعبارات مثل: «انه أبرد من ثلج الجبال».

ومع العصر يبدأ الناس بالحركة تدريجياً، ومع قرعات جرس الكنيسة، تبتهج الطبيعة بانقشاع طغيان النهار، وتظهر معالم هذه البهجة مع تدفق المواطنين لتنفس الهواء المسائي العذب، وهم يتمشون، مع خيوط الزوال في حدائق «داره»
أو «أكزنيل».

ومع الغروب تحس بمظاهر جديدة، حين تبدأ البيوت بإضاءة مصابيحها بالتتابع.: هنا من شرفة بيت، وهناك أمام تمثال قديس تجلى في هذا المكان أو ذاك. وهكذا تتألق المدينة تدريجياً. وتخرج من كل قصر وحديقة وشارع، أصواتٌ لا تحصى من نقرات «الغيتار»، وطرقات صنجات اليد «كاستا ليتا»، لتختلط مع بعضها بصورة عامة تظل تسمح بإمكان تمييزها. من منطلق أن شعار الأندلسيين هو: «التمتع بالوقت». ولا يظهر هذا الشعار بشدة أوضح من ظهوره، في أضواء الليل الصيفي. حيث يصطحب كل واحد خليلته إلى حلبات الرقص، وتظهر كل العواطف.

وبينما كنت في إحدى الأمسيات أجلس في الشرفة هذه، لأتمتع بالنسيم العليل، جاء «ماتيو» راكضاً من طرف الهضبة، للالتصاق بي وعدم مفارقتي، والإصرار على مساعدتي بالتاريخ، وأشار إلى بيت محدد في شارع حقير من شوارع «البائسين»، ونسب إليه على ما أذكر الحدث التالي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مغامرة البنّاء

كان في غرناطة في يوم من الأيام بناءٌ، صناعته العمارة. وكان الرجل متديناً يحافظ على حضور أيام القديسين. وكلما زاد ورعه وتدينه زاد فقره، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يؤمن خبز عائلته.

وبينما هو نائم في أحد الأيام، صحا على قرع بابه، ففتحه فإذا هو أمام راهب طويل عريض، لكنه شاحب النظرات كالميت؟

فبادره قائلاً: «مرحباً أيها الأخ المستقيم».

أجاب الغريب: لقد لاحظت أنك مسيحي جيد، يمكن الوثوق به. فهل لك أن تحصل على عمل هذه الليلة؟ .

أجابه: على الرحب والسعة، شرط أن يدفع لي سلفاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الغريب: سأفعل هذا شرط أن تعصب عينيك؟ .

وعلى هذا الشرط الأخير لم يعترض البناء. فهو كان بطبعه سهل الانقياد. ولذلك قاده الراهب معصوب العينين عبر أزقة متعرجة، وممرات مختلفة، حتى توقفا أمام باب دار. فأخرج الراهب مفتاحاً فتح به الباب المغلق منذ زمن بعيد بصعوبة. وبعد أن دخلا، عاد إلى قفل الباب، ثم سارا عبر دهليز طويل راح يردد صدى خطواتهما، ومنه إلى القاعات «البرانية» الخارجية، التي تقود إلى قاعات «جوانية» داخلية في البناء[15] . وهنا أزال عن عيني البناء العصابة، في قاعة يضيئها مصباح واحد خافت، وتبدو في وسطها «فستقية» عربية جافة. ثم طلب الراهب منه أن يحفر تحت هذه «الفستقية»، وقدم له معولاً لهذا الغرض. فراح البناء يعمل طوال الليل، دون أن يتمكن من إنهاء عمله. وقبل بزوغ الصباح، أعطاه الراهب قطعة ذهبية، ثم عصب عينه مرة ثانية، وقاده إلى خارج المنزل.

وهناك قال له: هل ترغب أن تعود مرة ثانية لإتمام عملك؟

فأجابه: بسرور أيها السنيور «الأب» طالما أنال أجري بشكل جيد.

فرد عليه: حسناً... سأمر عليك غداً في منتصف الليل.

وهكذا فعل وحفرت الحفرة. وعندها طلب الراهب منه أن يساعده بنقل ما أسماه جثثاً لتدفن فيها. توقف شعر رأس البناء من الخبر، وهو يتبع الراهب بخطا مرتجفة، إلى غرفة الاستراحة في المنزل. على أساس أنه سيرى منظر أمواتٍ مرعب. لكنه استراح حين دفع إليه أربعة جرار من الفخار كانت في زاوية الغرفة، وهي مليئة بالمال حتماً. وساعده الراهب بحملها، ثم دفناها بعد جهد كبير. وأغلقت الحفرة، وأعيد رصف الأرض فوقها، ليمحى كل أثر عمل في المكان، ثم نظفت الأرض. وبعد ذلك أعاده الراهب هذه المرة من طريق يختلف عن الذي أحضره منه، بعد أن جعله يلف في طرقات، وزواريب مختلفة. وبعدها توقف ليضع بيد البناء قطعتين من الذهب، طالباً منه التوقف في هذا المكان وعدم رفع العصابة عن عينيه حتى يسمع جرس الكنيسة الصباحي، وإلا ستحل عليه لعنته، ثم غادره. فانتظر البناء بأمانة جرس الكنيسة، وهو يسلي نفسه بتحريك

---

(15) : البراني في تصميم البيوت العربية القديمة هو: قاعة أو عدة قاعات لاستقبال الرجال، وحتى إقامتهم فيها، بمعزل عن «الجواني» الذي هو قاعة أو قاعات الحريم ومضافاتهن ـ المترجم ـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذهب في يده. ولما دق الجرس، أزال العصابة ليجد نفسه على شاطئ «أكزنيل» حيث عرف الطريق إلى بيته. فذهب فوراً ليستمتع مع أهله بأجر الليلتين المجزي، حتى أنفقه وعاد فقيراً كما كان.

وهكذا ظل يعمل قليلاً ويصلي كثيراً، ويحافظ على أيام القديسين والأعياد، من سنة إلى سنة، بينما تزداد عائلته فقراً، حتى أصبحوا وكأنهم غجرٌ مشردون. وبينما هو كذلك يجلس على باب كوخه، في أحد الأيام. لاحظ رجلاً غنياً كبيراً في السن ومعروفاً عنه أنه صاحب إقطاعات وأموال. فحدق به الرجل من تحت حواجبه الكثيفة، وقال: بلغني أنك رجل فقير جداً.

فأجابه: تلك حقيقة لا يمكن إنكارها أيها السنيور لأنها تتحدث عن نفسها.

قال: مما يفترض أنك تقبل العمل بأجر رخيص، ويكفيك فرحاً أن تصير إليك فرصة عمل مهما كان.

أجاب: أقبل يا سيدي بأجر أرخص معماري في غرناطة.

قال: هذا ما أريد. ان عندي بيتاً قديماً، يتداعى، وقد كلفني الكثير من المال. وهو يستأهل أن أصلحه رغم أن أحداً لا يعيش فيه. لذلك يجب إقلال تكاليف الاصلاح بأكبر قدر ممكن.

ولأجل هذا ذهب معه البناء إلى بيت كبير متداع. ومرا عبر غرف، ودهاليز وممرات فارغة، إلى أن دخلا إلى «الجواني» من البيت، حيث رأى البناء «فستقية» عربية قديمة، جعلته يتوقف لحظة، استعاد خلالها مشهداً سابقاً مشابهاً؟

فقال: الصلاة على روح من شغل هذا البيت سابقاً.

أجاب صاحب البيت: ليرحمه الله. لقد كان راهباً كبيراً في السن دون عقب ولا عائلة تعتني به. وقيل إنه كان ثرياً ولا وريث له. لذلك ترك كل أملاكه للكنيسة. وحين مات فجأة ذهبت كل ثروته للرهبان. ولأنه لم يكن يدفع لي أجر سكناه هنا، لم أستطع أن أحصل حقي منهم. إضافة إلى كل ما قاله الناس لي: بأنهم كانوا يسمعون صوت النقود الذهبية التي كان يعدها ليلاً في الغرفة التي ينام فيها. كما قال بعضهم بأنه سمع أصوات أنين وأصواتاً أخرى في القاعات، جلبت سمعة سيئة للبيت، سواء كانت صحيحة أم لا، فلم يسكنه أحد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال البناء: دعني أسكن في هذا البيت حتى يأتيك مستأجر له، مقابل إصلاحه لك. وبذلك أطرد لك منه الأرواح الشريرة أيضاً فأنا مسيحي جيد، ورجل فقير، لن يقترب منه حتى الشيطان بذاته. ولو تقمص لي على شكل حقيبة نقود.

فقبل عرض البناء بسرور. وهكذا انتقل البناء وأسرته إلى البيت، وراح يصلحه خطوة خطوة، معيداً إياه إلى ما كان عليه. ولم يعد أحدٌ يسمع صوت نقود في غرفة الراهب ليلاً، بل صار هذا الصوت يسمع في جيب البناء نهاراً. حيث زادت ثروته فجأة، مع استغراب كل الجيران ودهشتهم. وصار واحداً من أغنى الناس في غرناطة. وأرضى ضميره حتماً، بأن تصدق بمبلغ كبير للكنيسة، ولم يَذع سره إلا وهو على فراش الموت لأبنائه وورثته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قاعة السباع

إن السحر الخاص لقصر الأحلام القديم هذا هو: في القوة الغامضة فيه التي تجعلك تستعيد صور الماضي. فتلبس الحقيقة أمامك صبغة التصور والخيال. وبسبب سروري حين التجول بين هذه الظلال الموهة، اندفعت إلى كل مكان كان مفضلاً في الحمرا بالماضي، لأستعيد ظلال أشباحه بذهني. ولعل أفضل تلك الأمكنة هي «قاعة السباع»، وما يحيط بها من قاعات. حيث لم تعبث هنا يد الزمن بقوة فيها بعد. فآثار الأناقة العربية، والروعة، توجد تقريباً كما كانت في أصلها المتألق. ورغم كل الهزات الأرضية التي هزت وحرفت أسس هذا البناء وأبراجه الراسخة، فإن أياً من أعمدة هذه القاعة لم يتأثر بها. هذه الأعمدة التي تبدو خفيفة وأنيقة، لم يزح أي واحد منها عن مكانه، وظلت تحمل القباب الرائعة فوقها، تماماً كما تحمل أشجار الغابات السامقة قبة السماء، عبر العصور. لقد ظلت هذه القاعة جديدة وكأن الفنان العربي قد انتهى من صنعها لتوه. وأنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآن أكتب من قلب هذا الحدث التاريخي في بكرة صباح مشرق، في القاعة القدرية «لابن سراج». وأمامي البركة وآثار الصدأ عليها، تخلد لحظة المذبحة الأسطورية، وتعكس بقوة على ورقي صعوبة استعادة الماضي العنيف، من هذا المشهد الرقيق الذي أنا فيه. حيث فيه كل شيء مدروس بدقة لإثارة الشعور بالرقة والسعادة بجمال رقيق أخاذ.

فالضوء الذي يلف المكان من عل بلطفٍ، عبر القباب المتشابكة كما لو أنها ربطتها يد أسطورية مع بعضها، عبر القوس الأساسي الذي يحمل سقف قاعة السباع. يسمح لشعاع الشمس أن يتألق على أعمدته، وأن يتراقص على بركه، فينداح عبر القاعة ليرتفع إلى حدود خيالية نحو السقف. والنحل الذي يطن على الزهور، والفراشات الملونة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى، تلعب وتتراقص مع بعضها في هذا الضوء الشمسي. لا تحتاج إلا لقليل من الخيال لتصور «الحريم» في الماضي بينها، وهن يتجولن في هذه الفخامة الشرقية المعزولة.

إن كل من يستطيع أن يحوي هذه التصورات بتناغمها الثري، عليه أن يأتي إلى هذا المكان، عندما تلفه ظلال الغروب اللامعة على القصر، والتي تلقي بتموجاتها الضوئية على القاعة المجاورة. ولا شيء أكثر حزناً في الذات، من معرفة قصص العظماء التي رافقت وجودهم في هذا المكان، ثم كيفية تركهم له.

ودائماً كنت آتي إلى قاعة العدل في مثل هذا الوقت الغارب، حيث ظلال «الأوركيد» تتمدد على الجزء العلوي من نهاية القاعة. هناك حيث قام «فرديناند وإيزابيلا» بصلاة شكرهم، مع حاشيتهم المنتصرة. صلاة شكر متعجرفة تهدف إلى تطويب إمتلاكهما «للحمرا».

ولا زال يرى صليبهما على الجدار، الذي رفعت عليه صورة العذراء أيضاً، وطوب تحتها الكردنال الأكبر لاسبانيا، ومعه رؤساء المقاطعات الدينية. فصورت لنفسي مشهد هؤلاء الفاتحين، من الفرسان والرهبان. بكل أخلاطهم. وحرابهم ولباسهم القتالي الذي فيه تختلط الصليان بالحراب لتعلن ولادة رئيس ديني واحد لكل اسبانيا. وهي تدق أبواق النصر على الإسلام في قاعاته كذلك صورت لنفسي «كولومبوس» الذي سيكتشف العالم الجديد، وهو يقف بزاوية متواضعة من زوايا هذا المشهد كملحد معزول. ورأيت في تصوري اندفاع الكاثوليك نحو المحراب، ليغيروا الصوت العميق للشهادة، بصلاة شكر على نصرهم بعبارة: Te Deum

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللاتينية. وأنهيت تصوري باختلاط الملوك، والرهبان، والملاحدة، والمحاربين من الذين تقلبوا جميعاً على المسلمين المساكين ليطردوهم. وهكذا رأيت كيف تهجر القاعات، ليطير الخفاش في أضوائها الوردية، ويحط البوم على برج التجار المجاور.

فلم أعد منذ هذا أدخل قاعة السفراء لعدة أمسيات، ثم فوجئت بأحد الأيام بوجود عربي مراكشي معمم يجلس بهدوء جانب البركة: فخلته للحظة وكأنه أحد أساطير القصر العربي المسكون، وقد عاد ليكسر لعنة القرون عن هذا المكان، فصار مرئياً. لكنه كان انساناً حياً وعادياً، من سكان «تطوان»، وله دكان في حي الزقاقين ـ زاكاتين ـ في غرناطة حيث يبيع «الأفاويه» ـ البزورية ـ والعطور. ولأنه يتقن الاسبانية بطلاقة، تمكنت من التحاور معه. فوجدته ذكياً وماهراً، وأخبرني أنه يأتي إلى هنا ـ الحمرا ـ في الصيف لتمضية جزء من النهار الحار. حيث يذكره هذا المكان بقصور العرب والبزبر عندهم. فهو مبني على نسق مشابه، لكن بصورة أعظم.

وبينما رحنا نتمشى معاً في القصر، أشار إلى الكثير من الجداريات الشعرية العربية، على أنها تحوي شعراً جميلاً جداً.

ثم قال: عندما حكم المراكشيون غرناطة أيها «السنيور»، كانوا شعباً أبهج مما هم عليه اليوم. إذ كانوا لا يفكرون إلا بالحب، والموسيقى والشعر. لذلك عملوا من كل مناسبة فرحاً، وكرسوها بالموسيقى. فمن كان يقول أفضل الشعر، ومن كانت تغني أفضل الألحان، كانوا المفضلين عند الناس. وفي تلك الأيام كان إذا طلب الشحاذ خبزاً، طُلِبَ الغناء منه مقابل ذلك، وحتى أفقر الشحاذين كانوا يشحذون على نغم وحُداء، ويجازون أحياناً على ذلك بقطع ذهبية..

فقلت له: هل يعني هذا أنكم قد فقدتم الاحساس الشعري العام الآن؟!

أجاب: كلا أيها السنيور، ان سكان «بربرا» وحتى من هم من الطبقات الفقيرة، لا زالوا يؤلفون «الكوبلات» الشعرية والموسيقية الجيدة، كما في الماضي. لكن الموهبة الشعرية، لم تعد تجازى كما في الماضي، لأن الأغنياء الآن يفضلون رنين الذهب على الشعر والموسيقى.

ثم لفتت نظره بينما كان يتحدث، مخطوطة جدارية تخبر عن عظمة وقوة الاسلام أيام امبراطورية وسيادة هذا الصرح ففرك عينيه، وهز كتفيه وهو يحاول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسيرها. وقال: هذا يصلح لأن يكون مثالاً. فلو لم يكن «أبو عبد الله» خائناً وجباناً، لظل المسلمون يحكمون الحمرا إلى اليوم، لأن الاسبان لم يكونوا يستطيعون احتلالها بالقوة.

وأضاف حين استعيد لك ذكرى أبي عبد الله التعيسة، كما أتصورها يمكنني أن أظهر أن الانذار الذي أدى إلى سقوط الملكية العربية سببه قسوة قلب والد أبي عبد الله. رغم أن العرب لايقرون بذلك!!

ثم قال مولاي «أبو الحسن» ربما كان طاغية قاسياً. لكنه كان وطنياً وشجاعاً وشهماً، ولو ظل على عرش غرناطة لظلت لنا. لكن ابنه ابا عبد الله هو الذي أفشل مساعيه، وأحبط خططه. حين عمم الشقاق والخيانة في القصر. فلتحل عليه لعنة الله لخيانته.

وما أن أنهى العربي كلماته هذه حتى غادر القصر.

وتتفق ملاحظات صديقي العربي المهم هذا، مع ما قاله لي صديق زار المغرب العربي، حيث أكد له باشا «تطوان» أن تقصياته عن إسبانيا، وخاصةالجزء الأندلسي المفضل منها، تؤكد أن روعتها الدائمة، تذكرهم بجذر تاريخي بحضارتهم، وقد تحدث «الباشا» إلى مجموعة من الحضور المسلمين، وهو يعبث بلحيته بشكل عاطفي كمن يغط قائلاً: لو ظل العرب على إيمانهم لما كان لهذه العظمة أن تزول. ثم تدارك قائلاً: إنني على قناعة أن القوة الإسبانية والأمة الإسبانية بانحدار، لذلك لن يمضي وقت طويل على المغاربة، إلا ويعيدوا فتح هذا البلاد. وربما لن يكون هذا اليوم بعيداو آن ذاك سيعود دين محمد (ص) إلى هناك، وستعود الجوامع إلى قرطبة، وسيجلس الأمراء المسلمون على عرش الحمرا ثانية. تلك هي العقيدة العامة عند المغاربة الذين لازالوا يسمون اسبانيا بإسمها القديم: الأندلس، ويعتبرونها إرثاً شرعياً لهم فقدوه نتيجة الغدر والخيانة والعنف. ومثل هذه الآراء المنتشرة هناك هي التي عبر عنها هذا العربي من بقايا الأندلسيين، لدرجة أن الكثير من أمثاله في «تطوان» لازالوا يحتفظون بأسمائهم الأندلسية القديمة مثل: «بايز» و «مدني» ولم تؤثر عليهم اختلاطات الزواج العائلي ، ولا على أصولهم الأندلسية، فأحسابهم مختلفة بشكل معروف، ونادراً ما يحافظ على هذا في المجتمع الإسلامي إلا الأشراف والملوك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه العائلات التي تتطلع إلى فردوسها المفقود ، لازالت تدعو في صلوات الجمع إلى الله أن يقرب يوم إعادة فتح غرناطة، وأن يؤيد المسلمين بالقدرة على ذلك، كحدث ينظرون إليه بقدر أهمية نظر المسيحيين إلى استعادة الصليب الذي صلب عليه المسيح، لدرجة أن بعضهم لازال معه سندات ملكية الأرض ومفاتيح البيوت، التي تؤيد حقه في امتلاكها، ووراثتها في غرناطة، والتي يمكن إبرازها يوم إعادة الفتح.

إن الحوار مع هذا العربي هو الذي وضعني أمام ضرورة تقصي مصير «أبي عبد الله» المنعوت بالزائغ أو التعس، والذي لم يتوقف سوء حظه حتى بعد موته. وفي حياته لم يستطع أن يترك للتاريخ اسمه كي يمدح!! فسيرته بعيدة عن لفت النظر الرومانطيقي لحكم العرب الخالد في اسبانيا. فمعه قتلت معاني الأسطورة الخالدة فيها. «أبو عبد الله» هذا الذي لم يتأثر بزوجته الرقيقة، التي عرضها لكل أنواع المحن بحياته وحين موتها، خاصة حين كان يتهمها زوراً بالخيانة الزوجية، وهي التي تعرف خيانته لأخته، وقتلها مع طفليها في ثورة غضب إتهام مشابه، كما لم تثر غضبه من جهة أخرى المجزرة الدموية «لابن سراج» حين أمر بقطع رؤوس ستة وثلاثين فارساً ليموتوا صبراً في قاعة السباع؟!

وقد عرف الناس كل هذه الإدانات المختلفة، وصاغوها بصيغ مختلفة، فصارت كنوع من مأساة ،ـ دراما ـ في ضمير الشعب وعقله. لدرجة أنه ولاغريب مر على «الحمرا» دون أن يسأل عن البركة التي تلقت رؤوس من قتلهم «ابن سراج». ودون أن يحدق في الغرفة التي عزلت فيها الملكة. وكل فلاحي «السييرا» أو «الفيغا» يغنون هذه القصص المحزنة، بكوبلات كئيبة على الغيتار. والكل يلعن «بيدول» أو «أبو عبدا لله»

ومع كل هذا أقول: إن اسماً في التاريخ لم يُفترَ عليه كما افترى على هذا الاسم. فقد جمعت كل الوثائق التاريخية والمراسلات التي كتبها كتاب اسبان معاصرون له. وبعضهم من أهل الثقة عند الكاثوليك وكانوا متواجدين في المعسكر إبان الحرب، وتفحصت كل الوثائق التاريخية العربية التي استطعت الحصول عليها عبر الترجمة، ولم أجد ما يبرر هذا الجانب الإداني الأسود المظلم للرجل، وذاك الكره لأبي عبد الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما قرأت كل الأعمال التي كتبت تحت عنوان «الحرب الأهلية في غرناطة، وتاريخ إقطاعات أيام «الزغارزة»، و«ابن سراج» و «زغريز» في حقبة الصراع الأخير مع الدولة العربية ضد الأسبان. وبعض هذه البحوث إسباني بالأصل، يؤكد أنه ترجم من أصول عربية على يد أمثال: «جينس بيرز دوهيتا» من سكان مرقا «موريكا» ومنه إلى كل اللغات، ومنه أخذ «فلورين» الكثير من القصص الخيالية عن شخصية «غرنزا لفو» القرطبي، والتي جعلها تبدو كقصص تاريخية حقيقية، فصدّقها الناس وخاصة فلاحي غرناطة، بينما هي كلها في الواقع من نسج الخيال المخلوط ببعض الوقائع الحقيقية التي تعطيها نفحةالصحة، وصفة التزوير واضحة فيها بحد ذاتها، حين تفسر سلوك العرب وأزياءهم بشكل خاطىء سيء، لايتوافق لا مع عاداتهم ولا تقاليدهم ولا إيمانهم، ولا مع ماذكره أي مؤرخ مسلم.

فبدا لي أن ثمة إرادة إجرامية مخططاً لها، لحفظ وترويج هذا العمل، إذ من حق القصص الرمانطيقية التجاوز، ولكن ليس إلى هذا الحد. فالأعمال العظيمة في التاريخ يجب ألا تخضع لما يلائم رغبات العداوات المعاصرة. ألا يكفي ما عاناه أبو عبدالله مثلاً من عداء «الاسبنيارد» في سرقتهم لملكه؟! حتى يلاحقه عداؤهم إلى إسمه، بجعله موضوع كره واحتقار في بلده، وبلد ابائه وأجداده؟!

فإذا أراد القارىء الحقيقة التاريخية بارزة مفصلة، ليتبن كل هذه التساؤلات!؟ فسأعطيه الحقائق التالية من مصادرها التاريخية الموثوقة. حيث سألاحق معه «ابن سراج» الذي وازى مالصق به، ما لصق بأبي عبد الله من المذبحة المنسوبة له. وأثناء ذلك سنضيء جانب الاتهام الظالم لأبي عبد الله بسجن الملكة زوجته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن سراج

كان هناك في اسبانيا تمييز سلاليُ بين المسلمين الذين هم من أصل مشرقي، وأولئك الذين هم من أصل مغربي افريقي. ويمثل النمط الأول العرب الذين يعتبرون أنفسهم من أنقى السلالات البشرية،خاصة أن النبي «ص» منهم، وفيهم وبهم كان أول ظهور الإسلام. أما النمط الثاني فهم «البربر» المحاربون الأشداء، وخاصة من جبال «الأطلس» والصحراء الكبرى.والذين يعرفون «بالمور» أي « المغاربة» أو المراكشيين[16]. الذين أوجدوا مدينة «مراكش » علىالمحيط، وبها تجمعت قبائلهم، وكانت تزود دائما بالعنصر المشرقي العربي الذي سيطر من هناك على مسلمي إسبانيا.

(16) : إن كلمة (مور) عند الغرب، هي : تحوير لكلمة المغربي العربيـة ومنهـا مراكشـي أو موريتـاني وكانت تشمل كل سكان شمال افريقيا بعد مصر . المترجم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و«ابن السراج» هذا من أصل مشرقي، يدعي الأصل العربي النقي، و «بنو سراج» كلهم كذلك. لذلك حازوا على أعلى المناصب، خاصة وأنهم من أحد أفخاذ قبائل الأنصار التي نصرت رسول الله «ص» وقد ازدهروا أساساً في قرطبة، ثم لأموا صدعهم بعد سقوطها بسقوط الخلافة غرب الأندلس وتماسكوا في غرناطة، بما لديهم من عصبية تدعمها أهمية تاريخية رومانطيقية. وهكذا صاروا أرقى وأشد فرسان الحمرا فروسية.

وظهرت أهميتهم وخطورتهم أيام حكم «محمد نصر» المكنى «بالحيدري» أو «الهيذاري» والملقب «بالأعسر» أحياناً. والذي استلم عرش غرناطة عام 1423م. فأغدق على الأنصار ومنهم آل سراج، جاعلاً من «يوسف بن سراج» زعيماً على آل «نصر» ووزيراً ومستشاراً له في القصر، مما سبب تقلب باقي القبائل عليه، وإنقلاب رؤسائها ضده. وبذلك فقَدَ «محمد» شعبيته. فإذا أضفنا إلى كل ذلك استهتاره وحمقه وسوء خلقه وعزلته في قصره الفخم «بالحمرا» وعدم اختلاطه بشعبه، وإقامة العدل بينهم و إقصاءه للعلماء، نجد كل أسباب الثورة التي قامت عليه، حين هجم الناس على القصر ـ الحمرا ـ فاضطر إلى الفرار من الحديقة إلى شاطيء إفريقيا، لاجئاً إلى تونس.

فاستلم الحكم الملك محمد «الزجور» ـ الصغير ـ ابن عمه، فاتبع سنة مخالفة لسابقه، فراح يشترك مع الناس في أعيادهم، ويمارس الفروسية مع فرسانه، ويرعى حصانه بنفسه، ويخوض سباق الحلبات، جاعلاً من فرسانه كوكبة مقاتلة رائعة.

لكنه أظهر العداء للذين كانوا مستفيدين من سابقه ودالت دولتهم، لدرجة أن خمسمائة من فرسانهم الرموقين غادروا المدينة. وغادر «يوسف بن سراج» مع أربعين فارساً من «بني سراج» كذلك المدينة ليلاً، إلى مملكة «جوان» في «قشتالة»؟! فحضّ «جوان» حاكم تونس برسالة على إعادة الملك المخلوع إلى عرشه حملها الوزير المخلص «ابن سراج» إلى ملكه المخلوع.

وفعلت الرسالة فعلها، فنزل محمد الحيدري إلى بر الأندلس من البحر مع خمسمائة حصان إفريقي، يدعمه فرسان «بني سراج» ومن غادر غرناطة، مع حلفائهم النصارى؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولهذا خضع الناس له دون مقاومة، واستعاد المدينة دون أن يضرب ضربة سيف، ووالى له جيش غرناطة فوراً. فاضطر خلفه إلى الاحتماء «بالحمرا» لكن جنوده قطعوا راسه بأنفسهم عام 1424 م بعد حكم دام له عدة سنوات؟!

وهكذا استتب الحكم للحيدري ثانية، فقدر ولاء وزيره، بأن أعاد بني سراج للتألق في القصر. ثم ارسل السفراء إلى الملك «جوان» ليشكر صنيعه ومساعدته، ويعرض عليه حلف صداقة. لكن هدف ملك قشتالة لم يكن هذا، فطلب منه الجزية. وحين رفضها «الأعسر» بدعوى أنه قد خاض الكثير من الحروب التي تمنعه من ذلك، وقعت مملكة غرناطة تحت ضربات الغزو، وخربت سهولها. ومع نجاحه في الكثير من المعارك، ظل الخطر على الحيدري من الداخل. «فدون بدرو فنغاس» النصراني المحتد، والمسلم بالعقيدة كان رجلاً وصولياً غير محمود السيرة، لعب دوراً وهو نبيل من عائلة «لوكي» أسر طفلاً في الثامنة من عمره على يد السيد «يحيى النيار» أمير «الميرة» الذي تبناه كابن له، وأنشأه تنشئة إسلامية، ورباه كما يربي الأمراء في الأسر. والسيد «يحيى» من عائلة نبيلة ترجع إلى «ابن هود» أحد ملوك غرناطة الأوائل. وبسبب علاقة الحب بين هذا الربيب وبين ابنة السيد الشهيرة بجمالها، والتي يتكرر اسمها في آثار غرناطة، ، بشكل لازال يحمل معه ظلال الأناقة والفخامة العربية، صار سليل عائلة «لوكي» صهراً لعائلة «ابن هود»

وفي الزمن الذي نبحث فيه كان «دون بدرو» شاباً نشطاً ذا نفس طموحة، وبدأ يظهر اسمه وراء مؤامرات عصره، التي أطاحت بالأعسر عن عرشه المهتز. ليرفع بدلاً منه «يوسف بن الأحمر» الذي كان من أقدم الأمراء ذوي الأصول «السلتية» والذي يدعمه طبعاً ملك «قشتالة» عبر التراسل السري مع «دون بدرو» وامتدت مراسلات «بدرو» إلى «قرطبة» ايضاً لهذا الغرض، على أمل أن يهيء «بدرو يوسف بن الأحمر» لمساعدة «جون» بمجرد أن يظهر جيشه في «الفيغا» كي يمكنه من اعتلاء عرش غرناطة بعد الإطاحة بالأعسر. وهكذا ترك المتآمرون المدينة تحت مختلف الأعذار. وما أن اقترب الملك «جون» من الحدود حتى حضر «يوسف بن الأحمر» مع ثمانية آلاف رجل لمساعدته، وتقبيل يده ولاءً.

ونحن لن نسجل المعارك المختلفة التي نشأت من هذا الموقف، في هذه المملكة، وما أعقبها من انتفاضات بل سنذكر بأن «ابن سراج» كان دائماً يقف بجانب الحظ العاثر لسيده «محمد» طوال هذا الصراع. إلى أن سقط في «الأقصى»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد معركة خاضها بكل شجاعة، مع عدد كبير من النبلاء والفرسان، وبهذه الكارثة الحربية تحطمت سيادة عائلة «بني سراج» تقريباً.

ثم طرد «محمد» مرة ثانية من ملكه، ولجأ إلى سيد «السيد» «مالقا» الذي ظل على ولائه له.

وهكذا دخل «يوسف بن الأحمر» المعروف «بيوسف الثاني» غرناطة منتصراً في أول يناير عام 1432 م، ليجدها مدينة في حداد على نصف سكانها: فلا عائلة شريفة فيها لم تخسر نصف أبنائها، فمع ابن سراج ذبح في «الأقصى» أروع الفرسان.

فمرّ هذا الملك «الملحد» في أزقة فارغة، ولم يجتمع له إلا القليل من الأتباع الموالين في قاعات الحمرا، فشعر بخطورة موقفه، خاصة وإن «محمد» المخلوع لازال في «مالقا» ويؤيده حاكم تونس وبعض حكام النصارى. والأنكى من ذلك كله أن أحداً لايحبه في غرناطة التي فجعها بأبنائها. فوقع بكآبة أدت إلى الوهن الذي ظل يلازمه ستة أشهر انتهت به إلى القبر.

وبمجرد وصول خبر موته للأعسر تحرك من مالقا وعاد مرة ثانية إلى عرشه. واختار من «بني سراج» وزيراً اسمه «عبد البر» وكان من أسوأ الإداريين في عصره. ومن خلال نصائحه اتبع سياسة العزلة عن الناس والعداء لهم، واقعاً بتناقض العفو عن كل أعدائه، بما فيهم أبناء يوسف الثلاثة: الأكبر «ابن سليم» الذي أعطاه لقب «أمير الميرة» وسيد «مارشينا» في الأقصى. والأصغر «أحمد» الذي سمي «سنيوراً»؟! على «الأوشار» و «أكويفيلا» والبنت التي نالت إقطاعاً كبيراً في «الفيفا» وعدة بيوت ومحال في الزقاقين بغرناطة. فتزوج «ابن سليم» عمة من عمات الملك بينما نال «الأمير نصر» يد «ليندا رقصا» الجميلة ابنة الموالي «للأعسر» سيد «مالقا» وهي التي يزين اسمها جداريات إحدى حدائق الحمرا، الداخلية السابق ذكرها.

أما «دون بدرو قنغاس» زوج الأميرة فلم ينل أي شيء، لأنه اعتبر مسؤولاً عن كل الشغب الذي حصل، وحُمّلَ مسؤولية موت الفرسان الشجعان مع ابن سراج. لذلك لم يذكره الملك بأي خير. ومن جهته ترك زوجته الأميرة، خوفاً من العقاب و الاعتقال، وكذلك ترك معها ولديه: «أبو القاسم» و «رضوانه» ولحق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالملك «جون» مع صهره، مستبدلاً غطرسته وطموحه بذل اللجوء و الأسى، ومات عام 1434 م كرجل محطم الآمال.

إلا أن قدر «الحيدري» ظل مرهوناً بمزيد من القلاقل. إذ كان له أبناء أخوين إثنين: «ابن عثمان» الملقب «بأنَفْ» و«ابن اسماعيل» وكان الأول طموحاً نشأ في «الميرة» بينمانشأ الثاني في غرناطة، وكان له الكثير من الأتباع والأصدقاء. وكان على وشك الزواج من فتاة جميلة، حين تدخل عمه وأعطاها إلى أحد رجاله المفضلين، فخرج من غرناطة بسلاحه وفرسانه غاضباً باتجاه الحدود. وقد لاقى سلوكه هذا استياءً عاماً، وخاصة من عائلة بني سراج، والوزير «عبد البر» الذي كان وثيق الصلة بالأمير. لكن الأخبار حين وصلت إلى «ابن عثمان» عن أخيه حول هذا المقيم المقعد، ومابه الناس من استياء عام، أ ثارت طموحه، فاندفع إلى غرناطة مثيراً مزيداً من الشغب، ثم فاجأ عمه في قصره، وأجبره على التنازل عن العرش له. وأعلن نفسه ملكاً، في سبتمبر 1445 م.

في الوقت الذي كان فيه أخوه «ابن اسماعيل» لاجئاً إلى «قشتالة» ونتيجة ذلك وبسبب يأس عائلة بني سراج من «الأعسر» وحظه العاثر من جهة، ولكونه رجلاً غير أهل للحكم، كتب «عبد البر» إلى الأمير «اسماعيل» في «قشتالة» واعداً إياه بمساندته في الوصول إلى الحكم، وقاد حاشيته وعصبيته، مع عدد من الفرسان هاجرين القصر إلى «مونتى فريو» ، ودعا الأمير إلى اللحاق به، ونصحه بأن يفعل ذلك بأن يغادر «قشتالة» سراً، خوفاً من أن يكون في رحيله ما يعارض إرادة ملكها «جون الثاني» ولكن الأمير االذي كان يدين بكرم هذا الملك، أخبر الملك قصته صراحة.

ولم يكن مخطئاً بذلك، فقد أعطاه الملك الإذن بالسفر إضافة إلى وعد بالمساعدة، وزوده برسائل إلى قادته على الحدود. وهكذا غادر«ابن اسماعيل» مع مرافقة علنية مهيبة، ووصل إلى «مونت فريو» بسلام، وهناك أعلنه «عبد البر» فوراً ملكاً على غرناطة وملحقاتها. وبذلك بدأ حرباً أهلية بين أبناء العم، انتهزها ملك «نافارا» و «آراغون» فساعد «ابن عثمان» بينما لم يقدم الملك «جون الثاني» سوى مساعدة بسيطة لابن اسماعيل، لأنه كان يتعرض لثورة شعبية.

فملئت الحقول بالدماء بسبب هذا التدخل الأجنبي، و الخلافات الداخلية. ورغم أن «ابن عثمان» كان شجاعاً يميز نفسه بسلاحه. إلا أنه كان قاسياً عديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرحمة، راح يحكم بيد من حديد، مسيئاً لشعبه بطغيانه، ولنبلائه بغطرسته. لذلك التأمت القلوب على ابن عمه لرأفته. وظل الناس يهجرون غرناطة إلى «مونت فريو» مما قوى من جماعة ابن اسماعيل. وبعد الصلح الذي تم بين ملك «قشتالة» وملك «نافارا وآراغون» تمكن ملك قشتالة من إرسال وحدات عسكرية ساعدت ابن إسماعيل، وبذلك تمكن ابن اسماعيل من ترك خنادقه في «مونتي فريو» والذهاب إلى ساحات القتال، باتجاه غرناطة، فرد ابن عثمان بتحرك مشابه للمواجهة، وحصلت معركة دموية، حارب فيها كل من أبناء العم ببطولة، وانتهت بهزيمة «ابن عثمان» وارتداده إلى حصونه. وحين طلب من السكان فيها حمل السلاح، لم يستجب له سوى القليل منهم، وخذلوه لقسوته التي أبعدت قلوبهم عنه، لذلك أغلق على نفسه الحمرا حين رأى أن نجمة قد بدأ يأفل، وقرر أن ينهي حياته بعمل إنتقامي ضد من خزله. فأدخل عدداً من الفرسان من الذين شك بولائهم. وراح يعدمهم واحداً إثر واحد، فور دخولهم القصر.

وهذه هي المذبحة الأولى التي لصقت بقاعه «ابن سراج» أما صاحبها الحقيقي المجرم، «ابن عثمان» فقد فر بعد أن إرتكب هذا العمل الانتقامي، حيث سمع بالناس تنادي على «ابن اسماعيل» ملكاً على المدينة، عن طريق ممر إلى «سيرو دل سول» فوادي «داره» ومنها إلى جبال «البقصار» مع أتباعه ليعيشوا هناك حياة قطاع الطرق. يجبون من المسافرين والقرويين تحت سيطرتهم «الخوة» والمكوس.

أما ابن اسماعيل الذي لقب بالثاني فتسلم الملك عام 1454 م فتصادق مع الملك «جون الثاني» بعقد فروسية، ولم يكن ذا نفس نزاعة إلى الحرب، فأعطى جوائز مجزية للذين أخلصوا له، ورعى عائلات من قتلوا لأجله، وجعل أبناء سراج من المفضلين في قصره من خيرة الفرسان طوال حكمه، ولذلك تميز عهده بالعمارة وخاصة تلك التي تشاهد أطلالها في «سير دل سول» اليوم.

لكن الملك «جون» مات في نفس ذاك العام الذي تسلم به «ابن اسماعيل» وخلفه «هنري الحادي عشر» الملقب «بالعاجز» على «قشتالة» فرفض «ابن اسماعيل» تجديد عهد الصداقة والفروسية معه، كما كان مع سابقه، لأن سكان غرناطة لم يرحبوا بذلك. فما كان من الملك هنري إلا أن طالب بالجزية، وراح يعتدي على مملكة غرناطة، ويساعد «ابن عثمان» وعصاباته، مستعيناً ببعضهم لتحصيل «الخوة» والمكوس، لكن فرسان «هنري» رفضوا بإباء التعاون مع خارجين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن القانون، وقـرروا القبـض علـى «ابـن عثمـان» الـذي تمكـن مـن الفـرار أولاً إلى «اشبيلية» ثم إلى «قشتالة»

ولأجل تأمين الأمن، وافق «ابن اسماعيل» عام 1456 م بمناسبة عيـد الفصح المسيحي لسـكان «الفيغـا» المسيحيين، علـى دفـع جـزء مـن الجزيـة إلى ملـك قشتالة، إضافة إلى تحرير ستمئة مسيحي من الأسر إذا شاء مسترقوهم من العرب ذلك.

وكتب معاهدة بذلك، وظلّ ملتزماً بهـا. وبذلـك حكـم لسـنين عديـدة ملكيـة مزدهرة، نـادراً مـا يمكـن لمثيلاتهـا في ذاك العصـر مثـل ذاك الإزدهـار، فتمتعـت غرناطة خلال حكمه بالتقدم و الإزدهار، وصارت مركز إشعاع حضاري.

أما لكي نفهم أحداث سقوط غرناطة، فعلينا أن نعرف أن زوجتـه أم البنـين ابنة سيد مقاطعة «حيايا» إبراهيـم النيـار والـذي كـان أميـراً «للميرة» أيضـاً، قـد أنجبت له ولدين وهما: «ابو الحسن» و «أبو عبد ا لله الزجال »[17]

واستلم الملك من بعد ابن اسماعيل ابنه «سـيدي ابـو الحسـن» عـام 1465 م، وبدأ عهده برفض دفع أي جزية مخزية إلى ملك قشـتالة . فسـبّبَ ذلـك الكارثـة الحربية القادمة.

أما أنا فألتزم بالحقائق المتعلقة بعائلة «بني سراج» والتهم التي وجهت لهم، ولأبي عبد ا لله «ببدول» ، لذلك سأكتب حول هذا الأمر فقط.

ولأجل هذا سأذكر القارىء بما حصل «لدون بدرو فنغاس» الملقب «بالزوبعـة» فهو بعد أن غادر غرناطة عـام 1433 م تـرك فيهـا ولديـن همـا: «ابـو القاسـم» و «رضوان» وابنة اسمها «سـتي مريـم» وبسـبب انتمـائهم الملكـي مـن جهـة أمهـم، ولأنهم متصلون بأمير «الميرة» ذي الفضل مع آخـر ملـك حـالي، ظلـوا ذوي حظـوة بالبلد. كما تميز هؤلاء الأولاد بموهبة وسلوك جيد، وتزوجـت «سـتي مريـم» مـن حفيد الملك يوسف وسيد «حيايا» وصهر «الزجال» وبسبب هذه الصلات العائلية القوية مع العائلة الملكية ، أصبح «أبو القاسم فنغاس» وزيراً لـولاي «أبـو الحسـن» وأخوه «رضوان فنغاس» من قادته المقربين. مما آثار حسد «بني سراج» الذين فقدوا الكثير من عقبهم، وحلت معظم المصائب بعائلتهم بسبب الحروب التي آثارها والد

---

(17) : هو عم «ببدول» أو ابو عبد ا لله آخر ملوك العرب في الأندلس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء «دون بدرو فنغاس» في أيام «يوسف الأحمر» والواقع أن التباغض حل منذ تلك الأيام بين بيت «بني سراج» وبيت «فنغاس» وتصاعد بشكل مذهل بين الحريم الملكي.

وزاده مولاي » أبو الحسن» االذي كان قد تزوج في شبابه من ابنة عمه ابنة السلطان الأعسر «ايقصا» ـ آيكسا لاهورا ـ ومنها أنجب ولدين أكبرهما ببدول ـ أو أبو عبد ا لله، ولي العهد. لكنه بعد تقدمه بالعمر تزوج لسوء الحظ مرة أخرى من امراة مسيحية أسيرة جميلة هي : «ايزابيلا دي سوليز» وتعرف عند العرب باسم «زوريا» ومنها أنجب أيضاً ولدين، فانقسم القصر بين السلطانتين، حيث تسعى كل منها لبنيها وراثة العرش. وقد دعم الوزير أبو القاسم فنغاس «زوريا» وكذلك أخوه «رضوان» لتعاطفهما مع أصلهما المسيحي الواحد، ولأن الملك يفضلها، بينما على العكس من ذلك التفت عائلة بني سراج حول السلطانة «آيقصا» ، من خلال ولائهم التقليدي «للحيدري» صاحب الفضل السابق عليهم من جهة أهم، ومن جهة أخرى ضد ورثة فنغاس أيضاً.

فزاد الانقسام في القصر، وأخذ كل اشكال التعارض، كما يحصل في كل القصورالملكية بمثل هذه الحال. لكن أعداء «آيقصا» استطاعوا أن يزرعوا الشك في عقل مولاي «ابو احسن» بأنها تعمل على تنحيته عن الملك لتضع ابنها «أبو عبد ا لله» ـ ببدول ـ بدلاً منه على العرش، فحبسها وابنها في أول ثورة غضب في برج «التجار» وهدد حياة «ببدول» بالقتل. لكنها أنزلته من شباك البرج على حبال صنعتها من ثيابها وثياب وصيفاتها ليلاً، حيث كان ينتظره موالون له بخيول سريعة، اخذوه بها إلى «البقصارا» . فكان سجن السلطانة هذا وراء أسطورة ملكة «ببدول» السجينة. فأمه وليست زوجته هي التي سجنت واستبدلت نفسها بالسجن مقابل حياته، كما حصل في الواقع، بينما الطاغية الذي سجنها لم يكن هو، بل والده.

وفي نفس الوقت حصلت مذبحة أخرى ثانية في قاعة بني سراج، بأمر من السلطان والضحايا فيها كانوا بني سراج أنفسهم، بناء على نصيحة الوزير «ابو لقاسم فنغاس» حيث قتل خيرة فرسان بني سراج، كوسيلة لبث الرعب في قلوب الآخرين الذين اشتبه السلطان بتآمرهم. فإذا صح هذا الأمر، فإن اختزالاً وتحويراً حصل لهذه الأحداث البربرية.وعلى أية حال فقد ظل بنو سراج على ولائهم لقضية «أيقصا» وابنها أبي عبد ا لله، خلال الحرب التي نشأت من جراء ذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينما كان «الفنغاس» بصف «أبو الحسن» و «الزجال» فمن المفيد هنا التذكير بما حصل لهذه العائلات بعد ذلك؟! فحين حصار غرناطة من قبل الفاتحين النصارى، كان «الفنغاس» أول الخاضعين - بل المتآمرين - مع الغزاة، والمتنكرين لعقيدتهم الإسلامية. وإن عادوا فوراً إلى الإيمان الذي كان عليه أجدادهم، وكوفئوا على ذلك بالمراكز الرسمية والإقطاعات، والزواج من عائلات اسبانية. وظلوا متقدمين على كل النبلاء. بينما ظلت عائلة «بني سراج» على صدق إيمانها بدينها ومليكها، و قضيتها الخاسرة. فانحدرت مع حطام البنية الإسلامية التي كانت مسيطرة، فلم يتركوا خلفهم أي عقب، عدا عن أسمائهم التاريخية الرومانطيقية.

هكذا استطعت أن أظهر مدى زيف هذه الأساطير التي روجت على «ابو عبد الله» وعلى عائلة «بني سراج» بهذا السياق التاريخي الذي اعتمدت به على الوقائع الحقيقية. فقصة إدانته لملكته، وقسوته مع أخته، يمكن اعتبارها بناء على هذا من القصص الملفقة أيضاً، وغير القائمة على أي أساس. فنحن نجد من سيرته التاريخية، أنه كان عاطفياً رقيقاً، كما لم يكن له سوى زوجة واحدة، هي «مريم» ابنة المجاهد الكبير في «الأقصى» وسيدها، «علي العطار» الشهير في قصص وأغنيات الدفاع الأخيرة في الحرب، والذي حارب بشكل مأساوي في أرض النصارى التي كان «أبو عبد الله» اسيراً فيها. أما زوجته فقد بقيت معه، بعد أن أطاح به القشتاليون» في الإقطاع الذي حجزوه فيه، في وادي «البقصار» وحين وصل الحقد «بفردناند» إلى طرده من وطنه إلى «افريقيا» اعتلت صحتها وهم يجهزونه للسفر وانهارت معنوياتها من طول الإجهاد وسقطت فريسة المرض، نتيجة الحزن «المانغولي» القاسي. بينما ظل أبو عبد الله مخلصاً لها حتى النهاية. وحينها أخر «فردناند» سفرهما عدة أسابيع بسبب شكوكه وقلقه، حتى ماتت «مريم» ودفنت في أرضها، ضحية قلب مكسور.

وحين وصل الخبر إلى «فردناند» من عملائه بموتها، شعر بأن ذلك تتويج لأحد أهدافه، بإزالة العائق الوحيد الباقي الذي يمكنه أن يربط أبا عبد الله بأي شيء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تَذْكِرَة بأبي عبد الله

تعلق في ذهني حظ أبي عبد الله العاثر، فتوجهت إلى الأحداث التاريخية التي رافقته، والتي لازال بالإمكان النظر فيها، والتي حددت مصيره وسوء طالعه. ففي برج التجار تحت قاعة السفراء مباشرة، غرفتان صغيرتان، يفصلهما ممرٌ ضيق، قيل إنهما المكان الذي سجنت فيه أمه، الفاضلة «أياكسا لاهورا». ولا يفي بفرض السجن هذا في الواقع أي مكان آخر في البرج سوى هاتين الغرفتين. فجدرانهما الخارجية سميكة وبها نوافذ صغيرة، عليها قضبان من الحديد، وتحت النوافذ مصطبة حجرية ذات انخفاض تتمدد على جوانب البرج الثلاثة. ومن هذه المصطبة يفترض أن الملكة دلت ابنها إلى الأرض، بثيابها وثياب مرافقاتها، التي جعلت منها حبالاً، خلال الليل المظلم، حيث كان ينتظره أصدقاؤه الخلص بأقدام ثابتة، لحمله إلى الجبال.

لقد مضى بين الثلاثمئة إلى الأربعمئة سنة على هذا الحدث المأساوي، ولازال مشهده ثابتاً غير متغير تقريباً. فذهب خيالي وأنا أمر بين هاتين الغرفتين، إلى صورة الملكة القلقة أن ذاك وهي تنظر من النافذة، وتسمع بأذن الأم أصداء حوافر الخيل، بينما يجتاز ولدها وادي «دارة» الضيق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي مناسبة أخرى عندما تصورت الباب الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة من «الحمرا»، شعرت بنفسه الحزينة المكسورة، وهو يسلم عاصمته وسرير ملكه، وقد أحاط به التشاؤم والتطير، لأنه طلب من الملوك الكاثوليك، أن لا يسمح لأحد بالمرور من هذا الباب من بعده، وتعاطفت «إيزابيلا» معه بأن أغلقت الباب وطينته، ووافقت على أن لى صلاته الأخيرة هناك، بناء على شاهد عيان معاصر قديم.

وقد أكد لي «ماتيو» عبث البحث عن هذا الباب الذي أغلق بالحجارة، بناء على ما سمع هذا المرافق لي المتواضع الإمكانات، عن أبيه عن جده، وهو نفس المخرج الذي خرج منه الملك «شيكو» من الحصن. وبه سر لم يعرفه أحد من سكان القلعة القدامى؟!

وقادني إلى أثر مكان به أثر باب، في منتصف ما كان بالماضي صرحاً ضخماً للقصر. كان سكان غرناطة يعتبرونه المدخل الأساسي للقصر، ويسمى «برج الطوابق السبعة» المشهور بين الناس على أنه كان مكان ترفيه عربي، ويعتبره الرحالة «سوينبر» المدخل الأساسي الذي يوصل إلى الجناح الملكي، حيث يقف حراس الملك ومرافقوه. لذلك يمكن عده مدخلا للقصر، بينما تعد البوابة الضخمة للعدل، مدخلا للحصن ككل. وحين نزل أبو عبد الله من هذا الباب ليسلم مفاتيح المدينة للغزاة الملوك الإسبان الفاتحين، ترك وزيره «بن كوميكسا» ـ ابن قميقسة ـ ليستقبل على باب العدل طلائع الجيش الفاتح، وقادته الذين سيستلمون الحصن ككل.

أما اليوم فكل «برج الطواب» السبعة مهدم، بعد أن نسفه الافرنسيون حين غادروا الحصن، وهو كتل من الجدران الضخمة المبعثرة المدفونة في أرض الأقصى، والتي تخفيها أشجار الكرمة، أو التين، لكن القوس الرئيسي للمدخل لازال سليماً رغم الانفجار. وهكذا تحققت آخر أمنية لأبي عبد الله المسكين بإغلاق المدخل بكتل حجرية ضخمة نتيجة الانفجار، فبقي لا يسمح بمرور أحد منه.

ثم ركبت حصاني لألحق الطريق الذي اتخذه هذا الملك المسلم عبر هضبة «الشهداء المجهولين» بموازاة سور الحدائق التي تحمل نفس الاسم، فنزلت في منحدر شديد معشوشب، به أشجار التين والزنجبيل، وفيه كهف يسكنه الغجر. ولأن المنحدر كان متعرجاً وشديداً، اضطررت إلى أن أنزل وأقود حصاني بيدي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن هنا مر المسكين الحزين أبو عبد الله ليخرج متجنباً المرور بالمدينة، ربما لكي لا يرى الناس مهانته، أو لأنه لم يشأ أن يسبب هياجاً عاماً. ولهذا السبب أيضاً وبلا شك سلكت القوات الفاتحة نفس الطريق لأخذ مواقعها في الحصن.وما أن خرجت من هذا المنحدر الشديد، المرتبط بتلك الذكريات الحزينة، وعبرت «بوابة النواعير» حتى وجدت نفسي في مكان النزهةالعامة الذي يسمى «برادو» ـ البارد ـــ وبعد أن عبرت باحة «أكسنيل» وصلت إلى كنيسة صغيرة كانت في يوم من الأيام مسجداً، وهي الآن «دير سان سباستيان» وهنا حسب ما يذكره الرواة، سلم أبو عبد الله إلى «فردناند» مفاتيح غرناطة.

وتابعت سيري عبر الفيغا» إلى القرية التي كانت أسرة الملك بانتظاره فيها، إذ كان قد أرسلهم لها من الحمرا في الليلة السابقة ، كي لاتشارك زوجته وأمه بمهانته الشخصية، أو حتى لاتتعرضا إلى تحديق الجيش الفاتح. ومنها يسيرون إلى المنفى. وحين تبعت هذا الطريق وصلت إلى سلسلة من المرتفعات تشكل حزاماً على جبال «البقصارا» ومن أحد هذه المرتفعات ألقى «أبو عبد الله» نظراته الأخيرة البائسة على «غرناطة» وهذه هي التلة التي لازالت تحمل اسم: «تلة الدموع» وخلفها طريق رملي يتسع نحو الفضاء الواسع الذي احتجز الملك التعيس المتجه إلى المنفى.

فنهرت حصاني إلى أعلى التلة حيث الصخرة التي وقف عليها أبو عبد الله، وعلى وجهه نظرات التساؤل الحزينة. وهي تسمى الآن «آخر ما رأه العرب» لكن من ذا الذي يستطيع أن يجوب في مشاعر رجل طرد من مملكة ومجد كهذا؟! فهو قد قاد كل سلالته، ومعها كل مجد وفرح الحياة من «الحمرا»؟!

والذي زاد من مرارته ما قالته له أمه «أياس» التي غالباً ما ساعدته أيام محنه، دون أن تتمكن من أن تدفع في نفسه ما بنفسها من روح وثابة!!؟

قالت: إفعل خيراً، وابك على ملكك بكاء النساء لأنك لم تحفظه حفظ الرجال. متأثرة بإباء الإمارة لابعطف الأم، هذه المرة.

إن المطران «غيفارا» حين أخبر الملك «شارل الخامس» بهذه الحادثة، قال: لو كنت مكانه لجعلت من الحمرا مدفناً لي بدل العيش بدون ملك في «البقصارا» ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن كم من السهل على من هم في قمة السلطة الوعظ بالبطولة ونقد سابقيهم، وكم قليلة معرفتهم بقيمة الحياة لتعساء الحظ عندما لايبقى لديهم سواها؟!

ونزلت من هضبة الدموع ببطء، تاركاً حصاني ليتجه إلى بوابة غرناطة وحده. بينما أقلب قصة «ببدول» التعيس بذهني، دون أن أرى في هذه الحقبة السوداء المتراجعة ما يدينه وحده، فهو قدر ترك ما يثبت أنه شخصية متلائمة معتدلة، عبر كل الحقبة الكارثية المضطربة التي عاشها بوقت قصير. ففي أول أمره حظي بقلوب شعبه لكرم سلوكه وتصرفاته. فكان دوماً يبحث عن الرخص والتخفيف، فلم يوقع اي عقوبة قاسية ضد الذين انقلبوا وثاروا عليه أحياناً. وكان يتمتع بشجاعة ينقصها شجاعة خلق الإقدام والثبات إزاء الأيام الصعبة المتقلبة عليه، فروحه اللاثورية الضعيفة هذه هي التي عجلت بسقوطه، وحرمته من عظمة البطولة، التي كان بالإمكان أن تعطيه كرامة المصير، مما أبعده عما تستحقه السيادة الإسلامية على إسبانيا في خاتمة درامية رائعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعياد غرناطة العامة

إن وصف مرافقي الذي يعتبر نفسه حجة في التاريخ، والإخلاص «ماتيو» أكزينس» للأعياد والعطل، تؤججه عاطفة شيطانية لهما. فلا أحد يضارعه بشرح الأعياد الدينية والمدنية لغرناطة. لذلك كان مجال تنقل دائم بين الحمرا والمدينة، خلال التحضيرات للعيد السنوي الكاثوليكي لصلب المسيح. ويزودني على الرغم مني بالأحداث اليومية لتقدم التجهيزات الرائعة التي ستحصل. وهو يحاول محالاً إنزالي من منتجعي البارد المهوى لأشهدها إلى أن خضعت أخيراً يوم العيد، لإلحاحه ونزلت من قاعات الحمرا الفخمة بمرافقته ، كما ينزل «هارون الرشيد» مع وزيره ومرافقه «جعفر» ، بحثاً عن المغامرة خارج القصر. وكان الوقت مع مغيب الشمس، وعلى أبواب المدينة نماذج من الناس تصور كل صور الريف الجبلي، وفلاحي «الفيغا» السمر. لأن غرناطة منذ تأسيسها ، كانت مركزاً للمقاطعات الجبلية المليئة بالقرى والنواحي. فكان هؤلاء يأتون منذ أيام العرب ليشهدوا الاحتفالات والأعياد، وليمارسوا الفروسية شبه الحربية في ساحات الميدان، واليوم يأتون لكي يستريحوا ويستمتعوا بالشعائر الكنسية. ومعظم هؤلاءالقرويين الجبليين من «البقصارا» «وسييراروندا» ممن خضعوا الآن للكنيسة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاروا من أشد الكاثوليك حماسة. رغم أنهم مازالوا على سماتهم المراكشية الوراثية القديمة. وهم بلا شك من سلالة الشعب الذي كان يحكمه أبو عبد الله.

وسرت بإرشاد «ماتيو» في الطرقات المزدحمة بالمعيدين، إلى ساحة «فيفا رامبلا» المكان الآخاذ الذي غنى له العرب أغاني الحب والفروسية. وقد أقيم على جانب الساحة سرادق من الخشب والورود، من أجل الحفل الديني الكبير في اليوم التالي وهو الآن في هذا المساء، مضاء كمكان نزهة، وعلى شرفات زوايا الساحة الأربعة تقف فرق موسيقية . أما في الساحة فتنتظر كل الأزياء الغرناطية، ويعرض كل أنيق جماله وهو يتنزه في «الفيفا رامبلا» هذه، حيث يلبس الفلاحون من كلا الجنسين ألبستهم التقليدية وتلمع عيونهم البراقة بإشراقة أندلسية مرحة. وفيهم من جاء من «روندا» المعقل الجبلي القوي، الشهير بقطاع الطرق، ومصارعي الثيران، والنساء الجميلات.

وبينما كان هؤلاء يتحلقون حول السرادق بسعادة، كان مركز الساحة مشغولاً بالفلاحين من أماكن أخرى محيطة بالمدينة، من الذين لم يأتوا ليقدموا عروضاً، بل جاؤوا لمتعة المشاهدة فقط. وملئت الساحة بجماعات عائلية وجيران منهم. على شكل جعلهم يبدون كالغجر، وخاصة حين يتحلقون لسماع نقر «الغيتارات» وبعضهم يرقص على نقرات الصنجات التي توضع بأصابع اليد، بينما آخرون ينشغلون في حديث مرح.

وكنت أمر بجماعات جالسة على الأرض، وأنا أخترق الصفوف بمساعدة «ماتيو» وهي تحتفل بهذه الطريقة. فإذا تلاقت عيناي بعيونهم التي كانت تحدق بي، كانوا يحاولون دعوتي لأشارك معهم باحتفالهم البسيط كعادة ضيافة موروثة عندهم من المسلمين، وأصلها من القيم العربية، ويمكن ملاحظتها عند أفقر «االإسبنيارد» وفي كل مكان.

وقد خف الاحتفال مع تقدم الليل، وتوقفت الفرق الموسيقية عن العزف، وبدأ الناس بالانسحاب إلى بيوتهم، لكن ظل مركز المدينة مليئاً بالناس نسبياً؟! وأكد لي «ماتيو» أن معظم االفلاحين نساءً وأطفالاً ورجالاً سيقضون الليل هنا، وينامون على الأرض بجانب سرادق الجنة هنا؟! خاصة وأن الليالي الصيفية لاتحتاج لدثار في هذا الجو الحار. إضافة إلى أن السرير يُعَدُّ فخامة وعادة لايتمتع بها معظم طبقة الفلاحين في أسبانيا، حتى أن بعضهم يحتقرها، فالإسبنيارد